الشرق والغرب

كتبه

المرحوم الدكتور

أحمد أمين

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٥

الشرق والغرب

كتبه

المرحوم الدكتور

أحمد أمين

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٥

فهرس الموضوعات

مقدمة

فى عام ١٩٤٧ دعيت للاشتراك فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد فى لندن لبحث مشكلة فلسطين ، وكان لزيارتى لأوربا ذلك العام أثر كبير فى تحديد مشاعرى نحو الغرب ، وأخذت أشك فى صحة الاعتقاد السائد بتقدم الغرب على الشرق فى مضمار الحضارة .

لمست نوعا من الأخلاق والعادات والتقاليد يخالف ما لمسته فى بلادنا ، وشاهدت منظمات وصناعة و إنتاجا لا عهد لبلادنا به ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تتزاحم فى رأسى مئات من الأسئلة التى أردت أن أدرسها لأجيب لنفسى عنها وللآخرين .

فمثلاً : —

هل الحضارة الأوربية نتيجة لروح الأروبيين ، أو أن روح الأوربيين هى نتاج الحضارة الأوربيــة ؟ أو بمعنى آخر : — هل الصناعة مثلا — وهى من أهم دعائم الحضارة الأوربية — كانت نتيجة للرغبــة فى مقاومة الطبيعة ، تلك الرغبة التى يتميز بها الأوربيون ، أم أن روح مقاومة الطبيعــة والتعالى عليها نشأت

نتيجة لقيام الصناعة ؟ وهل قيام الصناعة بهذا الشكل واصطباغها بالصبغة الأوتوماتيكية كان نتيجة لأوتوماتيكية الأوربيين ، أو أن هذه الأوتوماتيكية كانت نتيجة لامفر منها لقيام الصناعة وانتشارها على هذا النحو الواسع ؟ وهل كان اتجاه الصناعة وغير الصناعة نحو الإنتاج الحربي وانتشار الحروب وروح البغضاء بين الدول ، هل كان هذا نتيجة للحالة الاقتصادية والسياسية التى تسببت فى قيامها الصناعة الحديثة والعلم الحديث ، أم أن هذا الاتجاه الحربي وهذه الحالة الاقتصادية والسياسية نتيجة لروح حب الكفاح التى يتميز بها الأوربيون ونتيجة للأحقاد التى نشأوا عليها ؟

وهذه المبادئ السياسية التى حددتها أوربا ورسمت صورتها ، وهذه النظم الاقتصادية والاجتماعية من ديكتاتورية وديموقراطية وشيوعية ، هل هى نتيجة التعليم الحديث والصناعة الحديثة وكل حديث أتت به الحضارة الأوربية ؟ أم أنها لا علاقة لها بالعلم ولا بالصناعة وإنما جاءت بهذه الصورة لأنها هى صورة الأوربيون أنفسهم ؟

ثم هذه العلاقة بين الرجل الأوربى والمرأة الأوربية ، وبينهما وبين أولادهما ، وهذه العلاقة بين صاحب العمل والعامل ، وبين الحاكم والمحكومين ، هل كانت هذه العلاقات شيئاً جديداً على

أوربا أتت به نظم الحياة الجديدة ودعا إليه فلاسفتها ومفكروها الحديثون حتى تحقق على يد المرأة والأولاد أو على يد النقابات والأحزاب ؟ أم أنها علاقات قديمة أقامتها ضرورة الطبيعة فى أوربا فكانت قسوة المناخ وبرودة الجو وطبيعة الأرض الصلبة الفقيرة هى التى أدت إلى هذا النوع من التعاون بين الرجل والمرأة والأولاد ، وبين الحاكم والمحكوم ثم أدى هذا النوع من التعاون إلى هذه العلاقات التى نراها الآن بينهم ؟

هذه أسئلة على جانب كبير من الأهمية ، والبحث فيها والإجابة عليها يساعدنا كثيراً فى الإجابة على أسئلة تتعلق بحضارة الشرق الجديدة :

أولا — هذه الحياة الجديدة وهذا النوع من التفكير والأنظمة التى جاءت بها الحضارة الأوربية ، إلى أى حد تتصل بتقدم الإنسانية ؟

ثانياً — هذه الأنظمة فى الحضارة الأوربية المتصلة بتقدم الإنسانية ، إلى أى حد ترتبط بخصائص الغربيين وروحهم ؟ وإلى أى حد ترتبط بخصائص الشرقيين وروحهم ؟

ثالثاً — هل يستطيع الشرق أن يقوم بحضارته الجديدة من غير أن يتقيد مطلقاً بما وصل إليه الغرب ؟

أم هل من الضروري عليه أن يكمل من حيث انتهى الغرب ؟ وهل يستطيع ذلك ؟

هذه الأسئلة جميعها تضاربت فى ذهنى فترة طويلة من الزمن حتى رأيت أن أضع هذا الكتاب الصغير ، محاولا الإجابة عنها ، والمساهمة فى إنارة الطريق الذى يسير فيه الشرق الآن نحو حضارة جديدة .

والله الموفق ؟

الشرق والغرب

تمهيـــد

ما الشرق وما الغرب

شاع على الألسنة مقابلة الشرق بالغرب . فيقولون مثلا الشرق شرق والغرب غرب : وقديماً استخدموا هاتين الكلمتين متقابلتين ؛ فالمؤرخون يقولون تاريخ الشرق وتاريخ الغرب ، والفلاسفة يقولون مثلا : إنه قد اجتمع فى الاسكندرية إلهام الشرق ومادية الغرب ، إلى غير ذلك من مختلف التعابير — فهل هناك حقيقة مدلول معين للشرق ، ومدلول معين للغرب ؟

الواقع أن الشرق والغرب من الكليات العامة التى إذا أريد تحليلها عزت على التحديد ، فباقى الكليات العامة كحرية وجمال وعدل وديموقراطية ، كلها يستعملها الناس كثيراً ، فإذا أريد تحديدها صعب على من أراد ذلك ، فهــل كلمتا الشرق والغرب يمكن تحديدها بالرجوع إلى الجغرافيا أو هما نوعانــ من المزاج والخصائص ، أكثر منهما جغرافيين أو غير ذلك ؟

من الباحثين من أرجع الفرق بينهما إلى المعنى الجغرافى ، فحددوا الشرق بأنه ما كان شرقى البحر الأبيض المتوسط وامتداده

شمالا وجنوبا ، فيشمل ذلك الهند والصين واليابان والاتحاد السوفيتى وإيران والعالم العربى بأجمعه بما فيه مصر ، كما يشمل استراليا ، ويشمل الغرب أوربا وأمريكا . ولكن هذا التحديد الجغرافى عليه اعتراضات كثيرة ، أهمها أن فى أوربا ما يعد شرقياً كجزء كبير من تركيا وفى الشرق ما يعد غربياً كأفريقيا الجنوبية واستراليا ، ولذلك ذهب بعضهم إلى عدم الاتجاه إلى التحديد الجغرافى واتجهوا إلى التحديد بالخصائص . فالغرب يختص بالتقدم الميكانيكى والحركات الصناعية والديموقراطية وتلوين أدبه وفنه بلون خاص — لون عملى أكثر منه نظريا — وتقدير النساء ومنحهن كثيراً من الحرية . والشرق يتصف بالتواكل والخضوع للاستبداد والمساومة فى المعاملة والتقليل من حريات النساء وكثرة الاعتقاد بالخرافات ونحو ذلك ، وحينئذ إذا جرينا على هذا لم يعد للحدود الجغرافية قيمة ، فقد نحكم على اليابانيين بأنهم تغربوا أى اتصفوا بالصفات الغربية ، كما نحكم على بعض الأوربيين بأنهم تشرقوا أى اتصفوا بالصفات الشرقية وعلى هذا تكون الشرقية والغربية صفات لا حدوداً جغرافية . وبناء على ذلك إذا قلنا المدنية الغربية فليس معناها المدنية التى أتى بها الغرب مقابلة للمدنية الشرقية أى المدنية التى أتى بها الشرق ، وإنما نعنى بالمدنية الغربية ميزات وخصائص ، تتسم بها المدنية الغربية .

وقد أنكر غاندى وبعض الباحثين هذه التسمية إطلاقا ، تسمية الشرق والغرب ، وقال الحق أن هناك جمعيات أو مجموعات من الناس لها خصائص معينة ، ربما عدت خمساً : أوربا وأمريكا والجمعية المسيحية الأرثوذكسية ، والجمعيـة الاسلامية ، والجمعية الهندوكية ، والشرق ، وهذه الجمعيات الخمس اثنتان منها فى الغرب الجغرافى وثلاث فى الشرق . والفروق بين هـذه الجمعيات كبيرة لا تستند على شرق ولا غرب ، فالفرق بين المسلمين والهندوكيين وكلاهما شرقى ، كالفرق بين المسلمين والمسيحية الأرثوذكسـية وإحداهما شرقية والأخرى غربية .

وبعضهم يميل إلى اعتماد هذا التقسيم على الزمن لا على التقسيم الجغرافى ولا على الطابع والمزاج ، فالغرب يدل على معنى المدنية الحديثة بأساليبها الخاصة ، كالاعتماد على العلم فى كل مرفق من مرافق الحياة من تربية وزراعة وتجارة واقتصاد ونحو ذلك ، ويقابل هذه المدنيات غـير الحديثة من مدنية مصرية ورومانية ويونانية وعربية وغير ذلك ، فالعنصر الأساسى فى التقسيم هو الزمن .

ونحن أميل إلى اعتماد التقسيم على الطابع والمزاج فالمدنية الحديثة طابع ومزاج متدرجة فى سلم الرقى ، فمن انطبع بالطابع الحديث عد ممدنا مدنية حديثة حيثما كان مسكنه فى الشرق أو فى

الغرب ، ومن لم ينطبع بطابعها عد شرقيا سواء كان فى الشرق أو فى الغرب . ونحن نجد الخلاف الكبير بين أفراد الأمة الواحدة فقد يكون فيها أفراد يعبدون كل ما هو شرقى قديم ، وآخرون يعبدون كل ما هو غربى جديد ، وآخرون لا يعبدون هذا أو ذاك وإنما هم يعملون عقولهم ، ويرسمون لأنفسهم خطة للتقدم سواء كانت هذه الخطة شرقية أو غربية .

ويرى قوم آخرون أن المسألة ليست مسألة شرق وغرب وأن العالم كله على سعته لا يتحمل إلا مدنيــة واحدة ، وإنه إذا جاءت مدنية نسب إليها العالم كله على حسب تقدمه وتأخره ففى الطليعة المتمدنون بها وفى نهايتها المتخلفون عنها ، وسائر الناس طبقات بين ذلك .

هكذا الشأن فى تاريخ مدنية قدماء المصريين والمدنية اليونانية والرومانية والإسلامية ، فلما كانت كل مدنية من هذه المدنيات أرقى من غيرها فى زمنها ، سادت العالم وقلدها الناس على حسب استعدادهم ، واليوم سادت المدنية الحديثــة فعمت العالم كله إما طوعا وإما كرها ، فليست هناك مدنيتان متناقضتان : إحداهما شرقية والأخرى غربية ، بل مدنية واحدة تعم العالم كله — غاية الأمر أن بعض الأمم يستفيد من هذه المدنية الحديثة أكثر من

غيره ، و بعبارة أوضح ليس هناك سلمان مختلفان بل هناك سلم واحد ذو درجات مختلفة وقف أصحاب المدنية الحديثة فى أعلى السلم ووقفت الأمم الأخرى على درجات من السلم بحسب كثرة اقتباسهم منها أو قلته . وقد تنهض أمة شرقية نهضة غربية فترتقى درجات فى السلم كما فعلت اليابان وتركيا ، وهناك أمم تقف على أول درجة فى السلم ، و بين ذلك أمم مختلفة والمسألة كلها تابعة لظروف كل أمة ومقدار استعدادها لارتقاء السلم الغربى ، فالذين يقولون الشرق والغرب مخطئون ، وخير لهم ألا يقيسوا المسألة بعامل جغرافى بل يقيسونها بمقدار الاستعداد .

على أن المدنية الغربية كلها لم تبلغ فى جميع نواحيها مبلغ الكمال ، بل هى معيبة بعيوب تجعلها ليست المثل الأعلى للمدنيات كما سنبين ذلك فيما بعد ، وأنه قد يخلفها مدنية ليست متصفة بهذه العيوب تكون أرقى منها ، فما فيها من مادية مفرطة وما تؤدى إليه من تطاحن وحروب مهلكة يجعلها ليست المدنية التى ينشدها العالم ، بل إن الأمم التى تعدها المدنية الحديثة متأخرة قد يكون فيها من المزايا ما ليس عند المتقدمين فى المدنية ، فبعض الأمم التى تعد متأخرة عندها من السماحة ومن الكرم ومن النجدة ما يفضل أهل المدنية الحديثة .

وقد اختلف الباحثون فى الإجابة على السؤال الآتى : هل نشر المدنية الحديثة بين الأمم الشرقية أو بعبارة أدق بين الأمم الأقل مدنية نعمة عليها أو نقمة ؟ فبعضهم يرى أنها نعمة ، فهى تزيد من إنتاجهم وتنظم حياتهم وتعلمهم المطالبة بحقوقهم ونحو ذلك، وبعضهم يرى أنها لعنة أو أنها نقمة ، لأنها تجعلهم يضطربون ويحتارون بين سلوك قديم وسلوك جديد وأنهم يشقون بها لأن ظروفهم غير ظروف الأوروبيين .

خذ مثلا البرلمان ، فقد نجح فى انجلترا ولـكن لما نقل إلى بعض الأمم الشرقية أوجد فيها الشقاق والمحسوبية والبطء فى الإصلاحات .

والحق أن اتصال الشرق بالمدنية الحديثة وأخذه عنها واجب ضرورى فى نظرنا ، غاية الأمر أن فى نشرها الحالى عيبين : العيب الأول أن المدنية الحديثة تنقل كما هى من غير تعديل أو تمييز بين ما ينفع وبين ما لا ينفع ، ولـكل أمة ظروفها : فقد يكون الأمر نافعاً فى انجلترا وهو إذا نقل بحذافيره إلى الهند لا ينفعها ، وقد يكون نوع من العادة أو السلوك نافعا فى بلاد باردة وليس نافعاً فى بلاد حارة وهكذا . والعيب الثانى أنه مما يؤسف له أن المدنية الحديثة دخلت الأمم الشرقية بالحديد والنار لا بحسن التفاهم ، مما

جعل هذه الأمم تنظر إلى رجال المدنية الحديثة نظراً شزراً . ولو أنها دخلت بحسن التفاهم ولم ينظر الغربيون إلى غيرهم نظرة استعداء واستغلال لكان تقبل المدنية الحديثة أسهل وألطف ؛ ومما يؤسف له أيضاً أن العدد المحدود من قادة السياسة لم يغيروا آراءهم الاستعمارية مع ظهور فسادها ، ولذلك لم تذهب حدة العداء بين الطرفين . ولو وفق الغرب إلى أن يشعر الأمم الأخرى بحسن نيته وعدم استغلاله وأخذه بيده كما يأخذ الأخ الكبير بيد أخيه الصغير لنجحت المدنية الحديثة أكثر مما تنجح الآن .

لقد نجح العرب فى نشر المدنية الإسلامية فى الشرق الأوسط ، لأنهم دخلوه ناشرين لمبادئهم ، آخذين بيد الضعفاء منهم ولم ينجحوا فى نشر مدنيتهم فى الهند لأنهم دخلوها قاصدين الاستغلال ، وذلك بعد أن انتابهم الضعف وأصابهم مرض الجشع . وكان حال أوروبا مع الشرق كحال محمود الفاتح مع الهند .

* * *

وهنا يعترضنا سؤال آخر فى غاية من الدقة والصعوبة وهو : بماذا تعد أمة أرقى من أمة ، وما الذى يجعل أهل المدنية الحديثة أرقى من غيرهم أو بعبارة أخرى ما هو مقياس الرقى ؟ إن كثرة الآلات والمخترعات وحدها لا تصح قياساً ، فلو أننا قارنا بين بيت

ملىء بالمخترعات الحديثة من الراديو والتليفون والمكيف الهوائى وآلات للطبخ والكنس ولكن أهله متنازعون متكالبون على المادة أشقياء بماديتهم وأنانيتهم ، و بين بيت آخر ليس فية آلة من الآلات الحديثة ولكن أهله وادعون مطمئنون مرتاحو البال ، لعد البيت الثانى من غير شك أسعد وأرقى . ولو أننا خيرنا سيدة أوروبية بين بيت فيه كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ولكن أولادها يؤخذون من حين إلى حين إلى الحروب تستنزف دماءهم وتلقيهم صرعى ، و بين بيت آخر ليس فيه شيء من الآلات ولكن أولادها لا تحصدهم الحرب ولا ينزف دماءهم القتال لاختارت البيت الثانى ، والنتيجة من هذا كله ما ذكرنا من أن مقياس الرقى ليس الآلات والمخترعات . فما هو مقياس الرقى إذن . . . ؟

قد أجاب بعضهم عن هذا السؤال بأنه كلما كانت الأمة أقدر على استخدام الطبيعة ومعرفة قوانينها واستخدام هذه القوانين فى مصالحها واستغلالها أقوى استغلال كانت أرقى . ولكن بعض الهنود يعترضون على الأمم الغربية بنظرتهم إلى الطبيعة وقولهم : إنهم يقهرونها و يستغلونها فى مصلحتهم ، وكان الأولى أن يصادقوا الطبيعة حتى تفضى إليهم بأسرارها ، والموقف بين النظرتين

يختلف ، فمحاربة الطبيعة وقسرها على البوح بسرها غير مصادقتها لتهدى إلى من يصادقها بعض أسرارها .

على كل حال ربما كان استخدام القوانين الطبيعية فى الحياة اليومية خير مقياس للرقى ، ومعنى هذا أن يطبق على نواحى الحياة ومرافقها كلها ، فالحيوان أرقى من النبات لقدرته الطبيعية على الأشياء أكثر مما يقدر النبات ، من حركة و بحث على الغذاء ونحو ذلك ، والإنسان أرقى من سائر الحيوان لأنه فهم من الطبيعة ما لم يفهمه الحيوان واستخدمه أكثر من استخدامه .

وعلى هذا نرى أن المدنية الحديثة مقصرة تقصيراً كبيراً إزاء الأمم الأقل مدنية ، فهم لم يستطيعوا فى استعمارهم أن يفهموا نفوس الأمم المستعمرة ويجاروها ويسايروها ويرقوها وهـذا بعينه جهل ببعض قوانين الطبيعة ، فسوء المعاملة والإفراط فى الأنانية والرغبة الشديدة فى الاستغلال كل ذلك يسبب كراهية المستعمر وعـدم إقباله على المدنية الحديثة إقبالا تاماً ويعوق النزعة الإنسانية العالية فى أن من الواجب على المتقدم أن يأخذ بيد المتأخر — غاية الأمر أن استغلال القوى الطبيعية ليس كل مقياس الرقى ، بل يجب أن يضاف إليه أيضاً السمو الروحى ، فالمدنيـة الغربية تشقى الآن بسبب عدم بلوغها هذا السمو .

ويظن البعض أن الحضارات أتت يكمل بعضها بعضاً ، فكل حضارة تأتى تأخذ مزايا ما قبلها وتتجنب نقائصها . وهكذا كان موقف الحضارة اليونانية بالنسبة للحضارة المصرية ، والرومانية بالنسبة لليونانية ، والعربيسة بالنسبة لليونانية والرومانية . ولكنى أرى أنهـا نظرية ترضى غرور بعض الأوربيين ، إذ يرون أن حضارتهم أرقى الحضارات ، لأنها استفادت من كل ما قبلها من الحضارات وتجنبت عيوبها . والواقع فى نظرى أن الحضارة إنما تأتى لتقدم للإنسان نوعا جديداً من الأشـياء يكون هو فى حاجة إليه .

لقد جاءت الحضارة المصرية والإنسان متوحش يعيش عيشة بدائية ، فلما استقر بوادى النيل وعاش عيشة مطمئنة كان فى حاجة إلى تنظيم القوانين وإلى مرشد يشرح له وسائل الحياة . ولأول مرة قدمت مصر للعالم حضارة . ثم جاءت الحضارة اليونانية تقدم للعالم فنونا وعلوما وفلسفات جديدة لم يكن يعرفها بعـد أن تعلم كيف يستقر فى المدن ، ووجد عنده من الوقت ما يصرفه فى التفكير ، فاستطاعت الحضارة اليونانية أن تقدم ذلك كله نتيجة لبيئتها الطبيعية والاجتماعية ، فتقدم العالم بذلك خطوة أو خطوات ولكن سرعان ما دبت إليها الشيخوخة وظهر أن الإنسان يحتاج

إلى من يقدم له نوعاً آخر من الحضارة ، فكانت الحضارة العربية ، وأخيراً جاءت الحضارة الأوروبية الحديثة لتقدم للإنسان بعضاً من احتياجاته المادية والمعنوية ، فكان العلم التطبيق ، وكانت الصناعات ، وكان التقدم فى العلوم على اختلاف أنواعها .

والحضارتان اليونانية والأوروبية نتيجة لحياة اجتماعية غربية . والحضارة المصرية والعربية نتيجة لحياة اجتماعية شرقية . فكل منها يقدم للإنسان ما هو فى حاجة إليه وليست كلها كهرم بعضها فوق بعض .

من هذا كله نستنتج أن الشرق سبق الغرب فى حضارته ، وأن حضارات الشرق عاشت أكثر من حضارات الغرب . فالحضارة المصرية عاشت أكثر من أربعة آلاف عام مع أن الحضارة اليونانية لم تعش أكثر من ألف عام . وعاشت الحضارة العربية أكثر من ألف ومائتى عام بينما الحضارة الغربية لم تعش أكثر من سبعمائة عام ، وقد بدأ انحلالها منذ بدء القرن العشرين . ولذلك نستطيع أن نقول أن مدة تحضر الشرق أطول من مدة تحضر الغرب . يضاف إلى ذلك أن الحضارات الشرقية كانت متجهة نحو الأديان والأخلاق ، وتنظيم علاقات الجماعات والشعوب تنظيما يسوده السلام ، بينما كانت الحضارة الغربية

متجهة نحو التوسع فى الرفاهية المادية ، مما سبب التوسع فى والحراب ووسائلها ، فحروب بين الغرب والشرق غرضها الاستغلال وهى تشنها باسم الإنسانية ، وباسم واجبات الرجل الأبيض ، وحروب بينها و بين بعضها من الأمم الغربية تشنها باسم الحرية والمحافظة على الديمقراطية ، وحروب بين الفقراء والأغنياء يسببها الحقد والطمع ، تشن باسم الاشتراكية والشيوعية ، وكلها تفيد أن الأمم الغربية لم تبلغ من الحضارة الصحيحة مبلغاً كبيراً .

ومن هـذا كله نستنتج ما قلناه من أن الحضارات ليست مكملة لبعضها ، ونستطيع أن نقول إن الشرق إذا قدر له أن يبنى استطاع أن يقدم للعالم ما ينقص الغرب من روحانيات وأديان وتأملات ، ولـكن هذا لن يأتى إلا إذا استفاد من الغرب نظم إنتاجه وروحه العلمية .

إنى لآمل الخير للشرق ، وأرى بعض علامات تدل على بدء وعيه وولادته من جديد ، كما أرى بدء الانحلال فى الغرب لانحرافه عن مبادئه .

فقد أصيب الغرب بالزهو ، واعتقاده أنه يملك زمام كل شيء ، وتـكبر على كل من لم يكن من جنسه من الملونين . وجعل التاريخ محوره تاريخ أوروبا قديماً ومتوسطاً وحديثاً . ويكاد يهمل

تاريخ غيره من الصين والهند والفرس والعرب . والعجيب أن كثيراً من الشرقيين وقعوا فى مثل هذا الخطأ ، فقدّسوا كل ما يأتى من الغرب ، واحتقروا كل ما يأتى من بلادهم . والخوف كل الخوف إن تنقل إلى الشرق رذائل الغرب التى عملت فى انحلاله ، فيصاب هو أيضاً فى بدأ نهضته بما يصاب به الغرب .

إنى أرى النشاط والحيوية بدآ فى الشرق . وبدأ الأمل يساوره بينما بدأ اليأس يساور الغرب . وبدأ الشرق يتطلع إلى شىء جديد لا هو شرقى محض ولا هو غربى محض بل فيه مزايا كل منهما . بينما تسود الغرب فكرة التشاؤم وعدم الإيمان بالمثل العليا ، بل عدم الإيمان بأى شىء ، وأصبحت الوسائل عنده غايات .

هل أدل على فشلها من اختراعها أسباب انحلالها وعلى رأسها القنبلة الهيدروجينية ؟ الحق أن نهرو أوسع أفقاً فيما أعتقد من تشرشل ، والروح المعنوية لفرق الفدائيين أعلى من الروح المعنوية للقوات الإنجليزية التى لا تعتمد إلا على السلاح .

إن على زعماء الشرق أن يتخيروا من المدنية الغربية خيرها ، وينبذوا شرها ، من المدنية القديمة خيرها إن كان ذلك فى الإمكان . ونتيجة ذلك مدنية لا شرقية محضة ولا غربية محضة .

نعم وجد من المصلحين من أراد أن يأخذ المدنية الغربية

بحذافيرها ، لا فرق عنده بين صناعة وفن وابتكار ، وبين فضائلها ورذائلها ، ورأى أن المدنية الحديثة إما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها كما فعل مصطفى كمال فى الدولة العثمانية لأنه رأى أن بعض من تقدموه حاولوا الأخذ ببعض مبادىء المدنيـة الحديثة وترك بعضها ففشلوا ، كالسلطان عبـد الحميد ، فقد أراد أن ينقل من أوروبا النظم العسكرية ولـكنه لم يشأ أن ينقل مبادىء الحرية ففشل فشلا ذريعاً ، أراد مصطفى كمال أن يتجنب هذا الفشـل بنقل المدنية كلها من نظم عسكرية ومخترعات وقوانين ونظم اجتماعية حتى القبعة واللغة اللاتينية .

وقد أدرك هذا المعنى رجل آخر بطريقة أخرى ، وهو غاندى ، إذ أراد أن يمنع عن بلاده كل المدنية الحديثة ودعا شعبه أن يغزل بيده حتى لا يرتبط الشعب الهندى بالمصانع الانجليزية ، وحتى يبعد الهنود عما فى الحضارة الغربية من لهو ومجون ، لأن بعضها يسلم إلى بعض ، ولـكن تيار المدنية الغربية جرف تعاليم غاندى وعادت البلاد تأخذ عن الغرب .

نعم إن بعض من حاولوا المزج بين الحديث والقديم قد فشلوا كما فشل السلطان عبد الحميد ، ولـكن يظهر عنـدنا أن سبب الفشل هو جمع المصلحين بين عناصر متباينة لا انسجام

بينها ، كالجامعة العربية تسير فى بعض تصرفاتها على مبدأ القومية وهو مبدأ المدنية الغربية ، وأحياناً على مبدأ العروبة وهو مبدأ التكتل ، وأحياناً على مبدأ الاتحاد فى الدين وهو مبدأ الإسلام ، وتضطرب بين هذه النزعات الثلاث فتمنى بالفشل ، وكحال المزارعين فى الشرق يسير بعضهم على مبدأ الآلات الحديثة وما زال هنالك اعتقاد بالخرافات واتكال على القدر .

إن نجاح الشرق يأتى عندما تتكون له شخصية واضحة يعرف من هو ، وماذا يريد ، وإلى أين يسير ، وهنا يكون الأخذ والاختيار مبنياً على أساس ما يناسب هذه الشخصية وما يصلح لها ويقويها .

* * *

ولم يكن فرق بين المدنية الغربية وغيرها قبل القرن السادس عشر الميلادى ، فلم نكن نحس هذا الفرق عند انتشار المدنية الرومانية إذ كانت تحكم القسطنطينية وماحولها والإسكندرية وما حولها ولم يكن يقال شرق ولا غرب . وكذلك لم يكن لهذا المعنى وجود فى الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى ، بل أحس كل جانب أن كل فريق متميز بدينه وبمزاياه ، وربما أحس النصارى إذ ذاك بتفوق المسلمين عليهم كما أحس نصارى الأندلس وإيطاليا وفرنسا بتفوق مسلمى الأندلس عليهم ، ولذلك

كانت جامعات قرطبة مقصداً للأوروبيين من مختلف الجهات يتعلمون فيها . فلما جاء القرن السادس عشر نهضت فى أوروبا الحركات العلمية ، واستخدمت طريقة المشاهدة والاختبار والشك والتجربة . ونادى بيكون وديكارت ومن نحا نحوهما بالطريقة الجديدة فى التفكير ، ووجد على أثرها اكتشافات هارفى ونيوتن وبويل ، ونتج عن هذه الأبحاث العلمية والطريقة التجريبية نهضة فى الصناعات ، وسمعنا منذ ذلك الحين كلمة المدنية الغربية ، وأكبر أساس فيها الصناعة ، فإذا قيل المدنية الغربية فأول ما يصدم الذهن دلالتها على التقدم الصناعى ، وهذا التقدم الصناعى أسلم إلى صنع الآلات الحربيـة المدمرة التى يجهلها الشرق ، وبذلك أخضع الشرق لحـكمه ، ولو لم يكن هذا التقدم الصناعى ، أو كان الشرق وفق ببعض أبحاثه العلمية ورجاله العلميين إلى هذه الصناعات بعينها أو مثلها ما كانت المدنية الحديثة تدل على معنى ، بل ما استعملت كلمة الشرق والغرب ، وما حكم الغرب الشرق . وهذه النهضة التى قامت بأوربا فى القرن السادس عشر وما بعده أسلمت إلى مضاعفات جعلت الفرق بين الغرب والشرق شاسعاً ، مع أن التقدم العلمى والصناعى وحده لا يخول للمدنية الحديثة هذا الفخر كله ، فهو تقدم فى ناحية واحدة من نواحى المدنية ، وما زال هناك

مجال للتقدم فى نواح أخرى كثيرة ، كالتقدم فى السلوك الخلق وحب السلام والتعاون ، وهناك شك كبير فى تقدم الغرب فيها على الشرق .

وانتقلت المدنية الحديثة بعد القرن السادس عشر إلى الشرق سواء فى مادياته كالراديو والتلغراف والقطار ، أو فى معنوياته كالأفكار والآراء ؛ غاية الأمر أن الانتقال كان بطيئاً لما كانت المواصلات بين الشرق والغرب بطيئة ، فلما أسرعت الاتصالات بواسطة الطيران والراديو ونحوها ، وزالت الحواجز التى كانت بين أجزاء العالم بعضها و بعض ، أسرعت المدنية إلى الشرق وتقبلتها البلاد تقبلا مختلفا : تقبلتها اليابان مثلا أكثر مما تقبلتها الصين وتقبلها شمال السودان أكثر مما تقبلها جنوبه . ولعل الفارق الكبير بين انتشار المدنية فى أوروبا وأمريكا وبين انتشارها فى الشرق أن المخترعات الحديثة جاءت فى أوروبا وأمريكا نتيجة لحوادث ذاتية حتمية ، أما انتقالها إلى الشرق فكان نتيجة الاستعمار ، وعلى الجملة لم يكن نتيجة لحياة اجتماعية خاصة أنتجتها ، فكان الأمر كشجرتين إحداهما نمت وضخمت بسبب غذائها الداخلى وحسن تربتها وجودة بيئتها ، وأما الأخرى فقد تضخمت بسبب لصق أوراق وفروع عليها من

الخارج ، وشتان بين الوضعين . ولذلك يحس الأوروبى أو الأمريكى بأن الذى حدث من اختراع أو تقدم فى الآلات الصناعية نتيجة طبيعية لحياته وظروفه ، يتقبلها من غير دهش أو استغراب ، أما الشرق فيتقبلها مذهولا مدهوشاً لأنها نبعت من غير بيئته ، وكان من أثر ذلك أن التدرج فى الشرق لم يخط الخطوات الطبيعية عكس الغرب المخترع ، ففى الغرب أسلم (١) إلى (٢) و (٢) إلى (٣) وهكذا إلى (١٠) فى حين أنه قد يفاجأ الشرق بـ (١٠) قبل أن يكون التسلسل من (١) إلى (١٠) . وربما ظهر ذلك فى البيت الشرقى فتجد فيه أشياء قد تكون آخر اختراع غربى على حين أنك تجد بجانبه شيئاً شرقياً من بقايا القرون الوسطى ، فراديو « وفريجيدير » بجانب حصير وعباءة صوف من صنع اليد ، أو جلباب حرير على آخر طراز من صنع أحدث الآلات الأوروبية بجانب بلغة فى الرجل وهكذا . وهذا يعطينا صورة من صور الاضطراب فى الحياة الشرقية وعدم الانسجام .

ومن آثار هذا تولد الشعور بالتسامى عند الأوروبين والأمريكيين ، والشعور بمركب النقص عند الشرقيين ، ومن أجل هذا أيضاً عم التقليد فى الشرق وكاد ينعدم الابتكار عندهم ،

بينما ازدهر الابتكار عند الغربيين . فيكاد الشرق ينقسم إلى قسمين قسم يقلد الآباء الأولين ومدنية العصور الوسطى فى العلم والأدب ونوع التأليف ونحو ذلك ، وقسم آخر حديث يتسائل دائماً إذا عرض أمر : ماذا تفعل فيه أوروبا وأمريكا ؟ . فإذا عهد إليهم وضع دستور لبلادهم ، تساءلوا ماذا فعلت فرنسا وانجلترا و بلجيكا ور بما أخذوا من كل دستور مادة ؛ و إذا أراد الأديب إنشاء قصيدة قلد وادى القمر والقصر المسحور ونحو ذلك من عناوين لقصائد أوروبية ، وكل هذا تقليد لا إبتكار فيه ، كل ما فى الأمر أن قوماً يقلدون أجدادهم القدماء ، وقوماً يقلدون الغربيين المحدثين ، فنحن إما عالة على هؤلاء وإما على هؤلاء . إن عقول الشرقيين فى جوهرها ليست بأقل ذكاء ولمعاناً من عقول الغربيين ، بدليل أن الشرقى إذا تعلم بجانب الإنجليزى أو الفرنسى لم يقل عنه فى فهم مايلقى عليه ، ونجاحه فى الامتحان ، ولكنه كثيراً ما يختلف عنه فى مواجهة الحياة ، والابتكار فى حل ما يعرض عليه من مشاكل ، والاعتماد على النفس ، وهذا يدل أن الأمر أمر تربية أكثر منه أمر خلقة وطبيعة .

فالشرق إذا احتاج إلى شىء فاحتياجه أشد ما يكون إلى زعماء يغرسون فيه حب الابتكار ، و يعلمونه ألا يأخذ شيئاً إلا

بعد تمحيص وامتحان ، ويسائل نفسه دائماً : هل هـذا حق أو غيره أحق منه ، بدل أن يسائل نفسه ، ما ذا تصنع أوروبا فيه ؟ ولا شك أنه إذا ربى هذه التربية لم يكن أقل شأناً من الغربي ولا أقل قدرة على الابتكار ، وسيكسب العالم من ابتكاره أكثر من تقليده للغرب ، فنى العالم الآن نمط واحد من التفكير واتجاه واحد إلى غاية ؛ فإذا ابتكر الشرقى واخترع فستوحى إليه بيئته وتفكيره واختباره حتما منهجاً غير المنهج الأوروبى ، فيخترع ما يخترع على أساس غير أساس الغربى ، ويكسب العالم من المجهودين والنمطين والابتكارين .

سمعت أن دستور ليبيا الحديث جاء فيـه نص : إن كل ولاية فى ليبيا تستقل بالتشريع فى شئونها إلا فى مسائل ، إحداها ما يتعلق بالقنابل الذرية ! كأن ليبيا تنتج فعـلا هذه القنابل ، وكل ما فى الأمر ، على ما أعتقد ، أن الليبيين نقلوا بعض مواد دستور الامريكان من غير تنبه إلى اختلاف حالهم عنهم . كالذى شاهدت عند ما كنت قاضياً فى الواحات الخارجة ، خطيباً يخطب يوم الجمعة فيدعو أهل الواحة إلى تجنب التصييف فى باريس ! وكل ما فى الأمر أن الخطيب حصل على ديوان خطب ألَّفه قاهرى فقلده تقليداً أعمى .

* * *

والخلاصة أننا نخرج من كل هـذه الآراء التي عرضناها بما يأتى : —

١ — القول باختـلاف الشرق والغرب بالمعنى الجغرافى لا محل له .

٢ — أنه قد يكون فى الأمم أو فى المدنيات التى سبقت المدنية الحديثة بعض امتيازات تعوز المدنية الحديثة وهى جديرة أن تقتبسها منها .

٣ — إن المدنية الحديثة ليست هى المثل الأعلى للمدنيات ، ففيها عيوب تجعلها دون المثل الأعلى بكثير ، والمثل الأعلى الذى ننشده هو مدنية إنسانية لا مدنية تسود فيها الوطنية والقومية ، وتعد العالم كله كأسرة واحدة يعالج فيها المريض حتى يصح ، ويأخذ بيد الصغير حتى يكبر ، وتسهل فيها السبل للمتأخر حتى يلحق المتقدم .

٤ — خير للشرق وللعالم أن يبدأ الشرق نهضته الجديدة بشخصيته الجديدة ليقدم للعالم نوعاً من الحضارة هو فى أشد الاحتياج إليها . حضارة يحل فيها السلام محل الحروب والتعاون محل الكفاح والتفاهم محل القهر .

الفصل الأول

المدنية الحديثة

مظاهرها — مزاياها — عيوبها

مظاهر المدنية الحديثة :

من أهم مظاهر المدنية الحديثة بناء الحياة على العلم ، فعلماء الغرب منذ النهضة لا يقبلون شيئاً لأن أحدا قاله قبلهم ، بل يبحثون الأشياء مستقلين بحثا دقيقا . وقد وجّههم بيكون وديكارت إلى بحث عماده التجارب والشك قبل اليقين ، والاختبار فى المعامل بدل الأبحاث النظرية البحتة ، وقد ساروا على هذا المنهج من حوالى سنة ١٥٠٠ ميلادية . أما قبل ذلك العهد فلم يكن البحث حرا ، بل كان لا يصح لأحد أن يقول إلا ما تقوله الكنيسة أو ما قاله أرسطو ولو قام البرهان الحسى على عكسه .

وقد أدى المنهج الحديث إلى اكتشافات كثيرة كاكتشاف نيوتن قانون الجاذبية ، واكتشاف هارفى الدورة الدموية ،

ونادى دارون بمبدأ النشوء والارتقاء ، ومن ذلك الحين تحول الطب إلى تجربة وعلم لا دخل للخرافات فيهما .

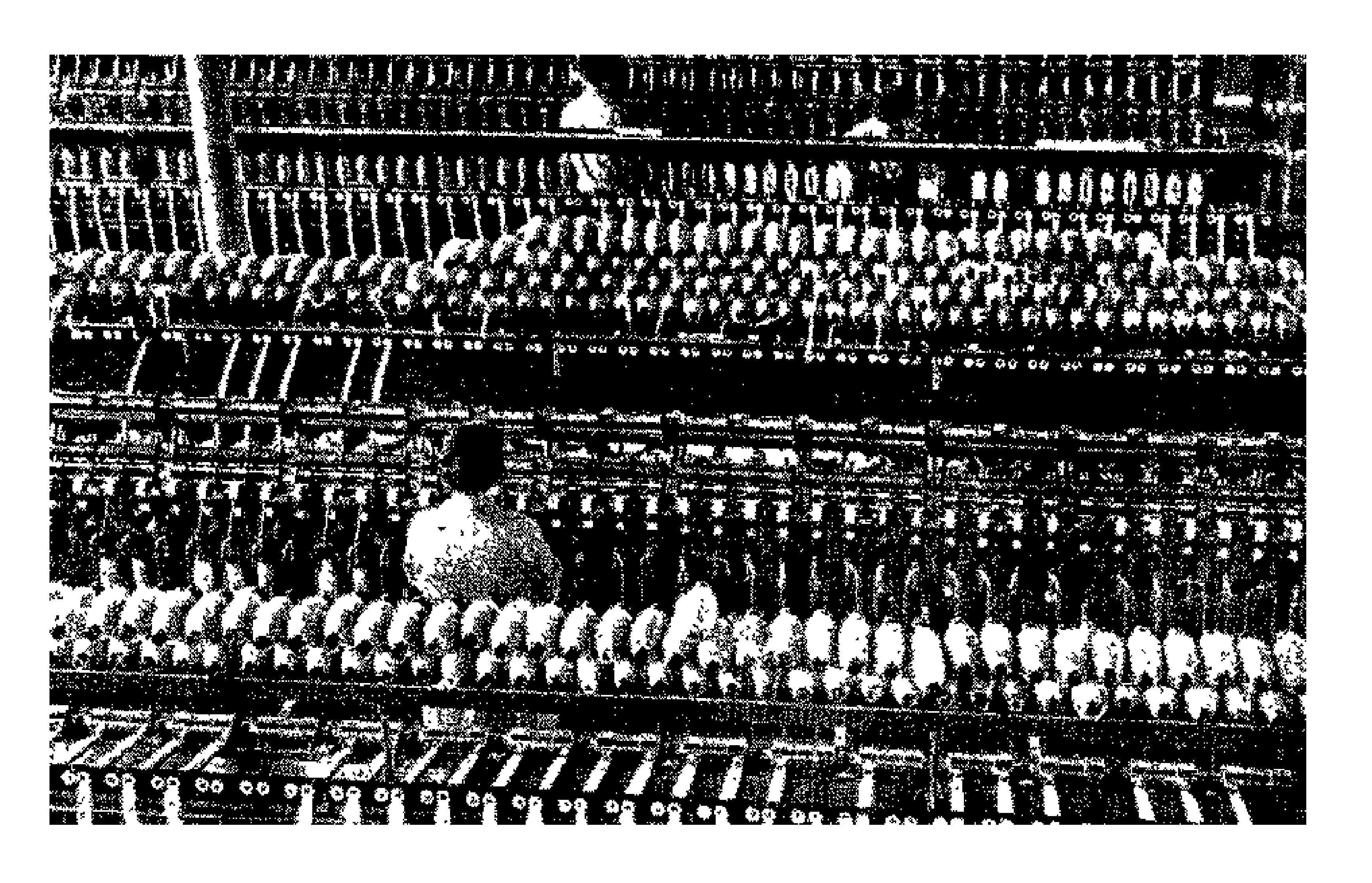
وتقدم علم الطبيعة والكيمياء ، وكانوا أول أمرهم يرون أن الأشياء تختلف باختلاف العناصر الأولية أو كمياتها وقد أوصلوا هذه العناصر إلى اثنين وتسعين عنصرا ، وتقدموا بعد ذلك فرأوا أن المواد تتكون من جواهر فردة تسمى الذرات ، وإن كل ذرة تتكون من شحنتين كهربائيتين : سالبة وموجبة تلتفان حول نواة ، واستطاعوا أخيراً فى سنة ١٩٤٥ أن يحطموا هذه الذرة فيجعلوا من هذا التحطيم قوة هائلة استخدموها فى صنع القنابل ثم فى الحياة السلمية .

وعلى الجملة فقد اعتمدت المدنية الحديثة على العلم ، وكان لهذا العلم آثار كثيرة فى الحياة ، فقد أذهب عن الناس الخوف من الخرافات والأوهام ، كالخوف من الجن والخوف من المظاهر الطبيعية . وتغلبوا بوساطة العلم على كثير من الأشياء التى كانت تسبب موت الأطفال فى صغرهم والنساء فى ولادتهن وعلى الطاعون والكوليرا ونحو ذلك ، بفضل اكتشاف الميكروبات ومعرفة وسائل علاجها ، كما خفف هذا العلم من آلام الناس من العمليات الجراحية باكتشاف البنج وما إليه .

ومن أكبر مظاهر المدنية الآلات والمخترعات واستخدامها في الحياة ، وذلك بفضل معرفة طبائع الأشياء وقوانين المادة . وقد استخرجوا بهذه الآلات الفحم والحديد من باطن الأرض وبذلك استطاعوا أن يتوسعوا في استخدام الآلات حتى عم استعمالها في أتفه السلع وأعظمها ، وعظم الفارق بين ما يمكن للآلة أن تنتجه وما يمكن للإنسان بيده ، فآلة واحدة قد تنتج من السلع أكثر مما ينتج ألف عامل ، وبذلك أمكن توفير الزمن — فضلا عن الإتقان — وتوافرت السلع في الأسواق ، وقربت المسافات بين أجزاء العالم .

وما أن زاد الإنتاج وقربت المسافات ، حتى نشطت التجارة ، وزادت المعاملات ، فنظمت البنوك من جديد ، واجتمعت المؤتمرات وعقدت المعاهدات ، ونشطت حركة الاستكشافات ، ونشبت الحروب رجاء التوسع في الأسواق .

ومن مظاهرها أيضاً تعميم التعليم وانتشاره وعده حقاً لكل إنسان لا حق طائفة خاصة . وبذلك تنور الناس وطالبوا بحقوقهم . وقد استطاعت المدنية الحديثة نشر العلم بوسائل كثيرة كالطباعة والسينما والصحف والأذاعة ، ووصلت المدنية في هذا إلى ما لم تصل إليه مدنية قبلها حتى إذا رأيت ما يطبع من الكتب والمجلات والجرائد رأيت عجبا .



الإنتاج الآلي

وقد كان الناس فى العصور القديمة ينقسمون إلى قسمين : — أغنياء لا إلى حد وفقراء لا إلى حد ، وكان يعتبر هذا التقسيم من أعمال القدر البحت لا دخل للإنسان فيه . فتدخلت المدنية الحديثة فى هذا وحددت ثروة الغنى ، وتدخلت فى فقر الفقير ، وجعلت حداً أدنى للمعيشة لا يصح أن ينزل عنه ، وحددت ساعات العمل ، وحرمت تشغيل الأطفال دون سن معينة ، وزادت من أجور العمال ، إلى غير ذلك من إصلاحات قربت بين الفقير والغنى إلى حدّ ما . وإذا تأمل الإنسان هناك فيما يعمل وفيما حوله من أشياء ، وجد أن المدنية غمرته فى كل النواحى ، ففى جيب العامل البسيط أو يده ساعة دقاقة من صنع المدنية ، وهو يلبس من صنعها ، ويحلق ذقنه بموس من إنتاجها ، ويبعث لعميله تلغرافاً أو يكلمه فى التليفون ، ويسمع الحديث فى الراديو ويصعد المكان العالى فى المصعد ويركب القطار والترام والطيارة ، وقد يستخدم المنظار لعينه وقد يكتب على الآلة الكاتبة وقد يطبع كتابا .

وهذه الحضارة تنتقل فى سرعة البرق من مكان إلى مكان ، ومن قطر إلى قطر ، حتى فى أتفه مظاهرها .

والشرقيون عادة يختلفون فى تقبل المدنية الحديثة بقدر اختلاف بيئتهم ومدى استعدادهم ، شأنهم فى ذلك شأن المستمعين

الحاضرة يختلفون فى فهمها حسب استعدادهم ، فالشىء الواحد قد يأخذه قوم فيحسنون استخدامه ويأخذه قوم فلا يحسنونه ، كالبرلمان ، ترى بعض الدول الشرقية قد حافظت فيه على الشكل والأوضاع القانونية ، فتقسم البرلمان إلى نواب وشيوخ ، وتحدد اختصاصات كل مجلس منهما ، ولكنه فى الحقيقة فاقد الروح ، فالانتخاب مزور ، والنتيجة كما يريدها الحاكم ، والأعضاء يستغلون مراكزهم لنشر المحسوبية ، وأكثر الأصوات غالباً تمنح حسبما يشاء الحاكم لا حسب المصلحة العامة .

إن تقبل المدنية الحديثة كتقبل الأديان ؛ فإنا نرى أنه إذا انتقل دين من أمة إلى أمة ، قد تتفق الأمتان فى شكل أداء الشعائر ؛ والأعمال الظاهرة ، ولكن تصور الدين يختلف فى كل أمة عن الأخرى . ولذلك ترى أنه لما عرضت المدنية الحديثة على العالم امتصتها اليابان أكثر مما امتصتها الهند ، بسبب حسن الاستعداد ، و بسبب وجود ملوك أو أمراء أو زعماء دفعوا الشعب دفعاً إلى السير فى سبيل المدنية ، فإذا لم توجد هذه الظروف فى أمة تخلفت عن الامتصاص . ولكن يمكن بصفة عامة أن نقول إن العالم كله متجه نحو الأخذ بالمدنية الحديثة ، فلا بد لمن يريد الآن حياة محترمة من أن يرفع من مستوى معيشته أولا ، وهذا لن

يتأتى إلا باستخدام الآلة ، وبالاستزادة من العلم والإنتاج وبمعرفة تامة بالوسائل الحديثة للتجارة وأعمال البنوك . ثم فليتجه الشرق بعد هذا ذلك الاتجاه الذى لم يتجه فيه الغرب ، فيعمل أن يكون الإنتاج لصالح السلم وليس لصالح الحرب ، وليتجه بالعلم نحو سعادة الإنسان لا نحو شقائه . ولتصبغ وسائل التجارة وأعمال البنوك بالصبغة الإنسانية لا بالصبغة القومية ، وهـذا ليس بالأمر الشاق على الشرق ، فخصائصه وأخلاق أبنائه يسمحان له بالسير فى هذا الطريق .

مزايا المدنية الحديثة وعيوبها :

للمدنية الحديثة مزاياها الكثيرة وعيوبها الكثيرة شأن كل مدنية عرفها التاريخ .

فمن مزايا المدنية الحاضرة :

١ — بناء الحياة على العلم ، فتربية الناشئين تبنى على آخر ما وصل إليه علم النفس والاجتماع ، والحياة التجارية تبنى على آخر ما وصل إليه علم الاقتصاد وهكذا ، وما لا يؤيده العلم لا يلتفت إليه .

ويتبع ذلك تعقيل الإصلاح ، بمعنى إخضاعه والسير به

حسب ما يرشد إليه العقل وحده . فإذا أريد مشروع إصلاحى بدئ بتصميمه ودراسته دراسة وافية والاعتماد فيه على الإحصاءات الدقيقة المختلفة ، وتهيئة الرأى العام لاستقباله استقبالا حسناً وهكذا ، ولا يصح القيام بإصلاح لمجرد العواطف والرغبات من غير دراسة . ولذلك قام المصلحون فى الأمم الحديثة مقام الأولياء والقديسين فيما مضى .

٢ — ربما عد من مزايا المدنية الحديثة محاولة تحطيم الاستبداد فى أشكاله المختلفة وتسويد رجل الشارع ما أمكن ، من ذلك تحطيم سيادة الملوك والأمراء والمناداة بسيادة الشعوب ممثلة فى برلماناتها ومجالسها ، ومحاربة الغنى المفرط لمصلحة الفقراء .

على أن المدنية الحديثة لم تخل من ديكتاتورية أحياناً كالتى أقامها هتلر وموسولينى ، فإنهما استبدا استبداداً يشبه استبداد حكام الشرق ، وقد قرأت هذه الأيام أن ممثلا إنسانياً معروفاً يعد هذه الأيام فيلماً يمثل فيه ديكتاتورية أمريكا المدعية الديموقراطية بأوسع معانيها ، وإن الاستبداد قد ينتقل من حكام إلى أحزاب وإلى نواد سياسية لا يعلم رجل الشارع من شأنها شيئاً .

٣ — التقدم فى فهم حقوق الإنسان فهما قيل عن عسف الأوروبيين وظلمهم فقد تقدموا فى فهم حقوق الإنسان . ففهموا

حق الإنسان فى الحياة وفى الحرية وفى التعليم وغير ذلك ، ولم يعد الملوك والأمراء يستعبدون الناس ويزهقون أرواحهم من غير تحمل أية مسئولية .

على أنهم إن كانوا قد طبقوا ذلك على أنفسهم فإنهم طبقوا نقيضه فى مستعمراتهم والبلاد الخاضعة لهم .

٤ — ومن مزايا هذه المدنية عملها على ربط العالم كله برباط واحد بسبب سرعة المواصلات والإذاعات . وفى هذا منفعة كبيرة لأنه يقوى الرأى العام فى أقصى الأرض ويجعل من السهل تتبع كل ما يجد فى العالم .

٥ — كثرة الاكتشافات وسرعتها وتوالدها مما يزيد فى راحة الإنسان ورفاهيته .

* * *

وبجانب ذلك كله عيوب لا تقل عما ذكرنا من مزايا :

١ — من ذلك هول الحروب مما سبب القلق والانزعاج خصوصاً بعد اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية . قرأت أن إذاعة روسيا وجهت مرة سؤالا : كيف يمكن منع الحروب ؟ فتلقت أجوبة مختلفة من كل أنحاء العالم رجالا ونساء ومن جميع الطبقات ، يقول بعضها أن المعاهدات لا تمنع الحروب ولكن

تؤجلها ، و إنما يمنع الحرب اجتماع من يمثل الشعوب حق التمثيل ، والشعوب لا مصلحة لها فى الحرب ، وإنما يدعو إليها ويديرها الرأسماليون الذين ينتفعون مالياً من الحرب ولا يهمهم ما يصيب العالم من ويلات . ويقول آخر أن العلاج تحريض العمال على الامتناع عن إنتاج المواد الحربية مهما هددهم الرأسماليون وقواد الحروب . و يقترح آخرون اقتراحات مختلفة ربما كان خيرها نشر التعليم السليم بين الشعوب .

٢ — ومن ذلك غرور أصحاب المدنية الحديثة واعتدادهم كثيراً بأنفسهم ، فعندهم أن الرجل الأبيض هو وحده يستحق البقاء دون الملونين ، ولذلك استخفوا بالشرق وأسسوا تاريخهم على الرجل الأبيض كأنه هو الأصل وتاريخ غيره على الهامش .

فلما ازداد وعى الشرق وأخذ يطالب بحريته واستقلاله ، أبى عليه الرجل الأبيض ذلك . و بعبارة أخرى أبى أن يعدل عن شعوره بعظمته وسموه عن الملونين فكان من نتيجة ذلك صراع عنيف بين الشرق والغرب .

ومن آثار ذلك أنهم يمجدون الحرية ويسبحون بحمدها ، فإذا أراد الشرقيون أن يقولوا قولهم ويتحرروا تحررهم عبسوا فى

وجوههم ونكلوا بهم ولم يمكنوهم أن يخطوا أية خطوة فى سبيل حريتهم ، كأن الحرية التى ينادى بها الغربيون وقف عليهم وفضيلة لهم ورذيلة لغيرهم .

٣ — عبادة القوة ، فالغربيون لا يقدسون شيئاً كتقديسهم للقوة ، وليس الحق عندهم إلا القوة ، فالأمة عندهم لا تحترم إلا إذا كانت قوية ، أما الضعيفة فلا يقام لها وزن مهما كان فى جانبها من حق ، ولغة التخاطب هى السيف والمدفع والآلات الحربية لا المنطق ولا الحجج العقلية .

٤ — مما أعده من العيوب المغالاة فى تسليط المرأة على الرجل ، فالمرأة متسلطة على الطفل فى البيت وعلى الشاب عند خطبته وعلى الرجل بعد الزواج ، ومن طبيعة المرأة أن تحكمها العواطف لا العقل ، فالمغالاة فى تسليطها على الرجل ضرر على الرجل خاصة وعلى المجتمع عامة .

٥ — كثير من الفلاسفة ينعى على المدنية الغربية أنها مدنية اختل فيها التوازن فنما عقلها وضؤل قلبها ، نما عقلها بالعلم والاختراع والاكتشاف ولكن ضعف قلبها ، وربما عبروا عن ذلك تعبيراً آخر بأنها مدنية مادية تنقصها روحانية .

نعم إن لهم عواطف نبيلة تتجلى فى بناء مستشفيات و إنشاء ملاجئ وتبرع للمنكوبين ولكنهم غالباً لا يقدرون الأشياء إلا بماديتها ، ودليل ذلك معاملتهم للشرقيين وتناحر بعضهم مع بعض ، فانجلترا وفرنسا تتفقان سنة ١٩٠٤ على أن تطلق فرنسا يد الإنجليز فى مصر فى نظير أن تطلق انجلترا يد فرنسا فى المغرب ، كل يستعمر و يستغل و ينكل . وقد تكشفت الحرب العالمية الأولى عن اتفاق فرنسا وانجلترا سراً على تقسيم البلاد العربية عليهما بحيث يكون لكل منهما منطقة نفوذ لا تتعداها ، فتأخذ انجلترا مصر والعراق وفلسطين ، وتأخذ فرنسا سوريا ولبنان ، فى حين أن انجلترا كانت تتفق فى الوقت نفسه مع أمير الحجاز على أن تمكن أكثر هذه البلاد من استقلالها .

وتقرأ الصحف الغربية فترى فيها مخايل الانحلال ، والصحيفة كالطبيب هذا يصف مرض الأفراد و يشخصه وتلك تصف أمراض المجتمع وتشخصها .

وقد أعجبتنى مقالة « لمكسيم جوركى » لم يتمها تدل على ما نقول من مخايل الانحلال وتدل على نوع الحياة التى تحياها الشعوب الغربية .

قال تحت عنوان (بعض مقتطفات من صحف الغرب) :

« هرب أربعة عشر طفلا من إحدى إصلاحيات الأحداث وقد قبض البوليس على اثنى عشر منهم ولم يعرف مكان الطفلين الآخرين . .

أم تذبح أطفالها بسبب الجوع . .

اختناق خمسة أشخاص زوج وزوجة وأم الزوج وابنه فى سن الثالثة . .

شاب يقطع امرأة إلى قطع صغيرة . .

أطلق سراح أحد المسجونين بعد أن قضى خمسة أعوام فى السجن ، ثم ذهب إلى رجال البوليس وطلب منهم أن يعودوا به إلى السجن من جديد لأنه مريض ولا يستطيع العمل ويأبى التسول فرفضوا طلبه لأن قوانين البلاد لا تجيز ذلك ، فذهب وحطم نافذة أحد المحلات وتعارك مع رجال البوليس فعاد إلى السجن . .

توفى شحاذ بلغ من العمر الثمانين ثم وجد أنه يملك مليون جنيه . .

توفى لورد ايشتون عن ٨٩ عاما وترك ثروة تقدر بعشرين مليون دولار . .

التهم أمس هانز مولر ٣٦ إصبعا من السجق فى إحدى عشرة دقيقة بسبب رهان . .

فى عام سنة ١٩٢٨ إنتحر بالنمسا ٩٥٣٠ شخصاً منهم ٦٦٩٠ رجلا و ٢٨٤٥ امرأة ، ومنهم ٦٤١٣ من سكان المدن و ٣١١٧ من سكان الريف ..

قرر عمدة لومبرج من أعمال سيليزيا فرض ضريبة على القطط ولكن المجلس البلدى رفض الاقتراح فلجأ العمدة إلى وسيلة أخرى : وضع مصايد للقطط الضالة وسمح لأصحابها باستردادها مقابل غرامة مقدارها ٣ ماركات . .

عندما ذهب المحضرون للحجز على أملاك الفلاحين بالقرب من هانبورج لعدم دفعهم ما عليهم قاوم الفلاحين وتراجع المحضرون . .

اعتاد شبح ليلى زيارة أحد القساوسة فى برلين و بعد أن استيقظ القس ثلاث مرات على صوت الشبح قام بتبليغ البوليس فوجدوا قبعة تحت نافذة حجرة القس والمعتقد أن الشبح الليلى نسيها . .

دارت مناقشة حادة حول هل يسمح للسيدات اللاتى يقصصن شعورهن بدخول اجتماعات الكنيسة ووصل الجدل إلى الفاتيكان فى مايو سنة ١٩٢٤ وأجابت كلية الكاردينالات بأن قص الشعر لا يتعارض مع المبادىء المسيحية . .

نشرت إحدى الصحف تقارير للبوليس تدل على اختفاء أكثر من ٤ آلاف امرأة كل عام من فرنسا واعتقال عدد كبير من تجار الرقيق الأبيض فى كثير من المدن الفرنسية . وثبت أن العصابات قد باعت ٢٥٠٠ فتاة لدور الدعارة فى جمهوريات أمريكا الجنوبية ، وظهرت مثلها عصابة أخرى للتجارة البشرية فى بولندا ... الخ » .

إلى جانب ذلك نرى الإعلانات المتعددة بالحروف الكبيرة عن المطاعم الفاخرة والكباريهات وأعمال الترف ، ونسمع قولهم أن الحياة تمضى قصيرة والأيام تمضى سريعة فلنعش فى مرح دائم .

قد يقال إن هذه حوادث جزئية قد لا يخلو منها مجتمع مهما رقى ولكن كثرتها وتعدد نواحيها ومقابلة الصحفيين والقارئين لها بالفتور والجمود دليل سيئ على خطورة الحال .

ومن مظاهر الانحلال أيضاً سلوك الغرب مع الشرق فلا الشرق بعد أن تنبه وعيه يرضى أن يعامله الغرب كما كان يعامله من قبل ، ولا الغرب يريد أن يغير خطته إزاء العوامل الجديدة فى الشرق ، ومن ثم نرى اضطرابات فى الشرق فى كل مكان ، فى مصر ، فى تونس ، فى مراكش ، فى الهند الصينية ، فى أفريقية الجنوبية ، فى إيران ، فى الصين ، فى مختلف الأنحاء . وانقسم العالم

إلى معسكرين : روسيا ومن يدور فى فلكها من الأمم ، وأمريكا ومن يدور فى فلكها ، وهذه تسمى نفسها الأمم الديمقراطية وهو اسم زائف ، وإلا فما معنى الديمقراطية مع هذا الاستعمار والاستعباد والاستغلال للشرق رغم أنفه ، ومع اضطهاد الملونين فى كل مكان وخاصة زنوج أمريكا ؟ حتى المعسكر الواحد منقسم على نفسه فالنزاع بين أمريكا وانجلترا اليوم على أشده ، ودول أوربا الغربية لا تكاد تتفق على شيء . يضاف إلى ذلك أن أكثر ميزانيات الدول منصرفة إلى الحرب أو الاستعداد للحرب ، وأكثر من ٧٠ ٪ من ميزانية أمريكا مخصص للتسليح وكلما أنفق معسكر على الحرب أو الاستعداد لها ، اجتهد المعسكر الآخر أن يستعد لها أكثر منه ، مما لو أنفق فى رفاهية الشعوب وإسعادها لكانت له أطيب النتائج .

ومما يؤسف له أنهم أفرطوا فى المناداة بكلمات أخلاقية : كحرية وإخاء وإنسانية وتعاون وتضحية ، فإذا دققت النظر رأيتهم يستعملونها فى مواضع تستوجب السخرية ، فالحرية كثيراً ما تستعمل لجرى المرء وراء شهواته وعند خيانة المرء الأمانة ، والتعاون كثيراً ما يستعمل للاتفاق بين دولتين للغدر بثالثة ، أو لتنسيق العمل بين حزبين للقضاء على ثالث ، والتضحية هى أن

يضحى الشعب بأرواح أفراده لينعم أصحاب المصانع الحربية .
ولم يدرك الغربيون أنهم مخدوعون ، وذلك لعمــوم الخديعة فمن دعى منهم لـكبت الغرائز ومحاربة المجلات الخليعة والصور الفاضحة والملاهى الداعرة عد رجعياً ، ومن دعى منهم إلى السلام وعدم التسليح عد خائناً وحق عليه أن ينبذ من قومه .

و بعد ، فقد قام فلاسفة ومصلحون أدركوا هذه العيوب وتوقعوا الشر منها ونادوا بإزالتها ، أمثال ولسن وروزفلت . ومن أجل ندائهم أسست عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة ، ولـكن ما لبثتا أن تغلبت عليهما الروح الرجعيـة فسخرتها لمصلحتها الشخصية وقلبتها إلى روح حزبية فلم تعملا كما أراد المصلحون لها ، وفشلت عصبة الأمم وأوشكت هيئة الأمم أن تلحق بزميلتها .

* * *

يقول اشبنجلر فى كتابه « تدهور الغرب » :

« إن اليأس وفقد الشهية إلى الحيـاة والاضطراب الخلق والسياسى والثقافى فى هـذا الزمن هى أعراض الشيخوخة التى أصابت حضارة الغرب بأكملها » .

ويقول أيضاً :

« إن المشكلة الرئيسـية للمجتمع الآن هى فقد الثقة والعزم .

وإذا نحن بحثنا عن فقدان المجتمع للثقة والعزم أمكننا فهمها فى ضوء فقدانها فى الأفراد ، وإذا فحصنا المشكلة عند الأفراد وجدنا أنها ترجع إلى أسباب كثيرة منها أننا توسعنا فى الصناعة توسعاً كبيراً من غير أن نكيف أنفسنا تكييفاً يسايرها ، ومنها أننا أملنا كثيراً فى سرعة التقدم وزيادته فخاب أملنا ، ومنها أننا لم ننجح فى إخضاع أهدافنا وآمالنا لأهداف الغير وآماله فغلبت علينا الروح الفردية والأثرة والأنانية ، ومنها أن الطبقة الأرستقراطية لما اضطرت للتنازل عن مركزها لم يمكن للديمقراطية الجديدة أن تحل محلها لأنها أسرفت فى طلب الحقوق إسرافاً يزيد عن أداء الواجبات ، ومنها اضمحلال العقيدة بتأثير العلوم وقد كانت خير عماد يعتمد عليه الإنسان وبفقدها فقد الإنسان طمأنينته وسيره نحو الكمال وحل محلها النظر العلمى . كما أنه اهتم بالمادة دون الروح واعتمد على الحقائق التى يسهل إثباتها بسرعة ومل الحقائق التى تحتاج إلى تجارب أجيال لإثباتها » .

هذه كلها وغيرها مما لم نذكر أسباب أثارت القلق والاضطراب والشك فى كل شىء مما عده اشبنجلر وغيره مظاهر للتدهور .

ولعل أسوأ وأفظع ما فى المدينة الحديثة اكتشافها القنبلة



وجوه مغبرة خارجة من المصنع

الذرية التي خلعت قلوب الناس وسببت لهم كثيراً من الاضطراب . قد يكون تحليل الذرة نعمة كبرى لو استعمل فى خير الناس ، كمعالجة الأمراض وتسيير السفن والقطارات . ولكن مع الأسف لتسابق الدول فى التسليح كان أول استخدام لتحليل الذرة تركيب القنابل منها . وقد تسابق فى ذلك المعسكران ، سبقت إليه أمريكا فأسرعت إلى اكتشافه روسيا . وربما كان ذلك فى خير العالم إذ لو امتلكه معسكر واحد لاستبد بالعالم استبداداً لا حد له . ومن الأسف أيضاً أنهم تقدموا فى هذا المضمار خطوة أخرى فاكتشفت القنبلة الهيدروجينية بعد القنبلة الذرية وحازها أيضاً المعسكران ، وهم يلوحون باكتشاف قنبلة أعظم .

كان الناس فى القرن التاسع عشر يؤمنون بتقدم العالم المستمر ، ويعتقدون فى المستقبل اعتقاداً حازماً ، فلما جاء القرن العشرون شك الناس فى كل شىء وذهب الإيمان بكل شىء . كل نظرية علمية وجد من العلماء من يشك فيها ، وساد التشاؤم بين الناس ، فلماذا يئسوا ولماذا تشاءموا ، مع أنهم أحرزوا كثيراً من النصر فى الميادين المختلفة ؟ لقد فعلوا كما فعل ميداس ، فى الميثولوجي اليونانية ، إذ فرح أول الأمر بأن عنده من القدرة ما يجعل كل شىء يمسه ذهباً ، فلما هم بالأكل مسّ الرغيف فتحول ذهباً .

ومن أكبر ما منى به العالم فى المدنية الحديثة خلق ما يسمى بالوطنية ، لا بمعنى الدفاع عن الوطن ولـكن بمعنى التعصب للوطن والسعى لإعلاء شأنه وتفوقه على الأمم الأخرى ولو شاركتها فى اللغة والدين ، والسعى لتوسيع رقعتها و إخضاع الأمم الأخرى لعظمتها . وهذه الوطنية بهذه المعنى ما هى فى الواقع إلا ركاب الاستعمار والحروب فى سبيل السيطرة الاقتصادية على العالم ، وحسبك دليلا على هذا أن الحربين العالمتين الأخيرتين كان من أهم أسبابهما رغبة الأمم الغربية فى الاستيلاء على آسيا وأفريقيا واستغلال مواردها وفتح أسواق جديدة لتجارتها .

***

و بعد فقد أكثرت من ذكر معايب المدنية الحديثة حتى كدت أنسى عيوب الشرقيين ، ولست أسعى فى ذلك إلى التهليل للشرق ، و إلا كنت كالفقير يتضور جوعا فإذا حكيت له متاعب بعض الأغنياء حمد الله على فقره ، و إنما ذكرت ما لنا وما علينا وما لهم وما عليهم حتى نعـلم أين نحن وأين يجب أن نـكون ، ثم لنبحث بعد ذلك عن الطريق الذى سينقلنا مما نحن فيه إلى ما يجب أن نـكون عليه .

الفصل الثانى

الاستبداد والديمقراطية

إن معنى الحكومة يختلف فى الشرق عنه فى الغرب :

١ — فالغربيون يفهمون أن الحكومة هيئة تمثلهم ، وترعى مصالحهم . نعم أن هذا المعنى بدأ بسيطا عندهم ، بدأ باعتناقهم أن أية ضريبة لا يصح أن تفرض على الشعب إلا بموافقة ممثليه ، ولكنه تطور حتى انتهى ببسط إشراف الشعب المطلق على الحكومة . وهم يكرهون السلطان المطلق ويعدونه نقمة كبرى يجب أن تزال ، أما فى الشرق فقد توالى عليهم الظلم والاستبداد ، ولم يصادفهم رجال أقوياء يصرخون ضد الظلم ويقفون الظالم عند حده ، فجرأ الحكام عليهم إذ رؤوا سكوتهم عما لحقهم ، بل ومقابلة الشعب ظلم الحكام بمديحهم والدعاء لهم بإعلاء شأنهم .

٢ — تعتقد الحكومة فى الغرب أن أول مهامها ضمان الأمن للشعب فى نفسه وماله ، ويرى المحكومون أن ذلك أول واجب عليها تحقيقه ، فإن لم يحقق ثاروا وطلبوا وألحوا فى الطلب . أما

فى الشرق فقد عبر عنه سعد باشا زغلول تعبيراً صادقا إذ قال ما معناه أن الحاكم ينظر إلى المحكوم نظرة الصائد للطائر ، والمحكوم ينظر إلى الحاكم نظرة الطير للصائد .

٣ — اعتقاد الشعب الغربى أنه هو وحده الذى يملك حق تشريع القوانين بواسطة من يمثله ، على حين أن الحكومة فى الشرق ترى من حقها أن تشرع ما تشاء من غير أن يكون عليها حسيب أو رقيب .

٤ — اعتقاد الشعب الغربى أن له الحق على دولته فى أن تعلمه وتقيه شر الجهل والمرض والفاقه ، بينما الدولة فى الشرق ترى أن تلك الأمور كلها ليس واجباً عليها وأنها إن فعلت فتفضل منها .

٥ — ترى الدولة الغربية أن من حقها أن تقبض على السلطة كلها بيدها ، ولا تسمح لأشخاص أو طبقات أن تسلبها شيئاً من سلطانها . أما فى الشرق فوجد بجانب الدولة أفراد وهيئات وطبقات لها سلطان يشبه سلطان الدولة ، كطبقة الأغنياء ورجال الدين . وبذلك تحول الفلاح والعامل فى الغرب من عبد ذليل إلى إلى إنسان مواطن له حقوق الطبقة الغنية ، وليس الأمر كذلك فى الشرق . ولذلك نرى القانون فى الغرب يطبق على الرفيع والوضيع ، بينما نراه فى الشرق وكأنه لم يوضع ليطبق على الأغنياء

والوجهاء ، وزاد الأمر سوءاً ذلك المنظر البغيض الذى سببته الامتيازات الأجنبية ، فقد وضعت أمام المواطنين منظر قوم وجهاء فوق القوانين وفوق الضرائب .

٦ — بينما تطور الغربيون إلى نظام تمثيلى يراعى فيه الشعب كل المراعاة ، تطور المسلمون إلى أدنى ، فبعد أن سار المسلمون الأولون على نظام مقتضاه خضوع الخليفة للكتاب والسنة ، ويشرف على تنفيذه أهل العقد والحل ، تطور إلى نظام ليس فيه إلا رعية تؤمر و « إمام » يأمر ، وأصبح الحكام لا يفكرون فى مواطنين لهم حقوق ولكن فى رعية تستغل لشهواتهم .

ثم زاد الأمر سوءاً أن المستعمرين أو المنتدبين تحالفوا مع الملوك والأغنياء والوجهاء ضد الشعب ، فهم يتحالفون مع الطبقة الأرستقراطية فى مصر ، ومع رؤساء العشائر فى العراق ، ومع الوجهاء فى تونس والجزائر ومراكش ، ويمكنونهم من استغلال نفوذهم وامتصاص دماء فلاحيهم ولو تضور هؤلاء جوعا . وكلما كان الرجل أكثر نفوذاً فى قومه كانوا له أقرب . وهم يفضلون النظام الملكى لأنهم يعلمون أنه من السهل التأثير فى الملك بشتى الوسائل ، ثم هو يؤثر فى شعبه حسبما يريدون ، فذلك خير لهم

وأسهل من أن يتصلوا بالملايين ويوجهوهم كما يريدون . إن الدول المستعمرة والمنتدبة تعلم حق العلم وجوه الإصلاح الحقيقى ثم لا تقدم عليه إذا أضر ضرراً ولو خفيفاً بمصلحتها . ومن أجل ذلك نرى أن التغيير الذى حدث فى الشرق إنما حدث للمثقفين لقراءتهم الكتب الحديثة أو سفرهم إلى أوروبا أو كثرة احتكاكهم بالأجانب بأى شكل ، أما طبقة الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعوب فلم يتغيروا كثيراً عن حالهم فى أقدم العصور . ومع أن ما نقل من النظم من الغرب إلى الشرق كثير منه شكلى لا جوهرى فبعض هذه النظم كان له أثر فى الشرق بالغ ، كالتنظيم المالى ، ووضع الميزانيات ، وادخال نظام الضرائب على الدخل ، وقد كانت الحالة المالية فى الشرق فى العصور الوسطى لا تخضع لأى نظام مالى ، ولا تزال بعض الدول الشرقية كذلك إلى الآن ، ومثل التنظيم القضائى فقد أدخل عليه فى الشرق تحسينات كثيرة ، وكان فى العصور الوسطى فوضى لا يخضع لأى نظام .

ومن الضرورى أن نلاحظ أمرين :

أولهما : أن المعيشة البدوية فى صحراء العرب فى عهد الجاهلية وخضوع القبيلة لرئيسها خضوعا تاماً ، وتنظيم الحياة على أساس

الأسرة ، كان له أثر عميق فى حياة المجتمع العربى ، حتى بعد أن أسلموا وتحضروا .

وثانيهما : أنه لما غزا التتار العالم الشرقى من الصين إلى مصر ، فعلوا بالبلاد أفاعيل عجيبة حتى قال عنهم ابن الأثير : « إنهم لم يبقوا على أحد ، وقتلوا النساء والاطفال والرجال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ... وهذه الحادثة قد استطار شرها وعم ضررها » . وزلزلت البلاد زلزالها ، وأصيب الناس بالصرع ، واكتسح جنكيزخان بجنوده ما وراء النهر ثم خراسان ثم العراق ، وأسقط بغداد وأتلف ثقافتها بطرح كتبها فى دجلة ، واستباح المدينة أياماً ، وكان جنوده إذا حلوا فى أى مكان خربوا وهتكوا الأعراض وسلبوا ونهبوا . وجاء بعد جنكيزخان هولاكو ثم تيمورلنك ، وكل عسف ودمر وخرب وأذل الناس وأرعبهم .

وإنما ذكرنا هذين الأمرين لندل بهما على عمق تأثير الأحداث التاريخية فى الشرق ، مما بقى أثره حتى اليوم ، ولا ندرى متى يزول هذا الأثر . فلكل من الشرق والغرب حوادثه التى أثرت فيه وجعلته مكونا هذا التكوين الذى نراه اليوم .

نكتب هذا ونحن ننظر إلى الشرق قبل أن تغزوه المدنية الغربية ، أو تدخل نظمها عليه وتؤثر فيه أثراً قليلا أو كثيراً . لقد أثر الغرب فى الشرق باحتلاله أو الانتداب عليه ، ثم جاءت الحربان العالميتان فزاد تأثر الشرق بالغرب ، واختلط العالم كله اختلاطاً غريباً وسهلت المواصلات ، حتى أصبحت تقطع المسافات البعيدة فى أوقات قريبة . وليكسب الغرب الشرق للمحاربة بجانبه مناه الأمانى الطيبة ، ففتح أمام عينيه آفاقاً واسعة جميلة ، فلما قبض يده بعد ذلك حرص الشرق على الوعود وطالب بها ، واتخذها مثله يدافع أشد الدفاع من أجلها .

وإلى جانب ذلك التفت الشرق إلى نفسه ، فرأى أنه يمكنه أن يصنع نفسه كالغرب ، ورأى أن الطبيعة منحته مواد خامة كالبترول والمعادن هو أولى بالانتفاع بها من الغرب ، وإنه إذا استخدمها اغتنى ، وإذا اغتنى ارتقى ، فوضع النواة الأولى للصناعة ، ولا شك أن الصناعة ستغير من أخلاقه وطريقة معيشته .

وهذان العاملان أشعلا نار الوطنية فى الشرق ، فبدأت كل أمة شرقية تطالب بحقوقها ، وأولها الاستقلال التام : السياسى والاقتصادى ، وكلما تنبه وعيه ألح فى المطالبة ، ولم يضن بالتضحية .

ولما بلغ الوعى الاجتماعى هذا المبلغ لم يلتفتوا إلى علاقتهم

بالغرب والمستعمرين وحدهم ، بل التفتوا أيضاً إلى حكوماتهم فوجدوها عائقاً عن تقدمهم بدل أن تكون عوناً لهم فحاربوها أيضاً وأسقطوها إن استطاعوا وأصلحوها إن استطاعوا .

وعلى الجملة وسّع الاحتكاك بالغرب ووعود عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة من آمال الشرق ، وجعلته يكثر من اقتباس النظم الغربية ويطبقها على نفسه ، فكره بذلك الأساليب القديمة الاستبدادية ، التي كان يحكم بها من الداخل والخارج ، ورأى أن لا بد من أن يحكم نفسه بنفسه .

* * *

يقول « ول ديورانت » فى كتابه « قصة الحضارة » عن مصر القديمة : « لقد كانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظاماً ، وكانت أطول حياة من أية حكومة أخرى فى التاريخ ، وكان الوزير يخرج من بيته فى الصباح الباكر (ليستمع إلى مظالم الفقراء ، ويصغى إلى ما يقول الناس فى مطالبهم ، لا يميز فيها بين الحقير والعظيم) . وقد وصلت إلينا على بردية صورة الخطاب الذى كان يلقيه الملك حين يعين الوزير فى منصبه : (اجعل عينك على مكتب الوزير وراقب كل ما يحدث فيه ، واعلم أنه هو الدعامة التى تستند إليها جميع البلاد ، ليست

الوزارة حلوة ، بل هى مرة . واعلم أنها ليست إظهار الاحترام الشخصى للأمراء والمستشارين ، وليست وسيلة لاتخاذ الناس أياً كانوا عبيداً ، انظر ، إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء وأن يتبع فى كل شىء العرف السائد فى بلده ، وأن يعطى كل إنسان حقه . واعلم أن المحاباة بغيضة إلى الإله ، فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه ، وإلى المقربين إلى الملك نظرتك إلى البعيدين عن بيته . انظر ، إن الأمير الذى يفعل هذا سيبقى هنا فى هـذا المـكان . وليكن ما يخافه الناس من الأمير أنه يعدل فى حكمه . ارع القواعد المفروضة عليك . »

ومن خطبة ألقاها دوق جو بين يدى ملك الصين لى — وانج فى حوالى عام ٨٤٥ قبل الميلاد : « يعرف الامبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحراراً فى قرض الشعر ، والناس أحراراً فى تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً فى قول الحق ، والوزراء أحراراً فى إسداء النصح ، والفقراء أحراراً فى التذمر من الضرائب ، والطلبة أحراراً فى تعلم العلم جهرة ، والعمال أحراراً فى مدح مهارتهم وفى السعى إلى العمل ، والشعب حراً فى أن يتحدث عن كل شىء ، والشيوخ أحراراً فى تخطئة كل شىء . »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحمر على أسود ولا لعربى على عجمى . »

وقال أبو بكر عند ما ولى الخلافة : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى و إن صدفت فقومونى » .

وفى عهد عمر لأهل إيليا ما نصه : « أعطهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ملتهم . لا تسكن كنائسهم . ولا ينتقص منها ولا خيرها ولا من صلبهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

هذه الكلمات وغيرها من آلاف الأمثلة فى آداب الحضارات القديمة وتاريخها ترينا مدى ما وصل إليه الشرقيون فى قديم الزمان من ديمقراطية تكاد تكون كاملة ، سواء كان ذلك فى نظام الحكم أو فى نظام الأسرة وفى نظم المجتمع . و إننا لنجد فى الحضارة الإسلامية ، أيام الخلفاء وفى عهود كعهد عمر بن عبد العزيز ومحمود نور الدين زنكى صوراً رائعة للديمقراطية الحقة ، ترينا أن الظلم الذى مر على الشرق فى فترات معينة لم يكن خاصة من خواص الشرق — كما يظن بعض المتحاملين عليه — و إنما كان خاصة من خواص فترات الانحلال التى تمر بها البلاد وتنتهى إليها الحضارات ، فإن ذكرنا جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك

فى الشرق ، فعلينا أن نذكر حكام الغرب قبل النهضة ، وحتى فى فترات النهضة لم تخل أوروبا من دكتاتوريات بشعة اعتدت على أقدس الحريات .

نعم ، لقد سيطر على بلاد الشرق حكام استبدوا بها ، وسلبوا أموالها ، ونكلوا بها أيما تنكيل ، ورجال الدين يدعون لهم على المنابر ، ويلقبونهم بالملوك الصالحين ، والفنانون والأدباء لا عمل لهم إلا النفاق والملق والاستجداء ، فانخلعت لذلك قلوب الناس أمام الخلفاء والأمراء والولاه . وانتقل ذلك إلى من هم أدنى منهم فرئيس المصلحة مستبد على مرؤوسيه ، والمدير مستبد على المآمير ، والمآمير على العمد ، والعمد على الفلاحين والضباط على الجند ، والجند على الباعة المتجولين إلى آخر هذه المظاهر ، فكل مستبد به ممن فوقه مستبد على من دونه ، فهو ينتقم لاستبداد الأعلى بالاستبداد على الأدنى — نعم كل هذا يحدث فى الشرق ولكن ألم يحدث مثل ذلك فى الغرب قبل أن ينعم بما ينعم فيه الآن من بعض الديمقراطية ؟ ألم تمر على ذلك الشرق المستعبد فترات عرف فيها العدل ؟

إذن فالمسألة ليست مسألة شرق ولا غرب ، وإنما هى حضارة تأتى ورخاء فى البلاد يعم ، فتتفتح الأذهان ، وتنشط النفوس

للمطالبة بحقها وإيقاف الظالم عنـد حدّه .

إن آثار استبداد الماضي لا تزال عالقة بأذهان الشرقيين ، وهي من غير شك تعوق فكرة التقدم على أساس ديمقراطي ، ولكن الشرق آت على حضارة جديدة قوية ، ومع استمرار التقدم وازدياد الرخاء يختفي الظلم ، كما تختفي السلطة الاستبدادية الموروثة ، فالمسألة مسـألة درجات في الرقي الطبيعي لا مسألة شرق وغرب .

الفصل الثالث

الثقافة

نعنى بالثقافة ما يشمل التربية فى الأسرة وفى المدارس وفى الشوارع والمجتمعات ، وأينما يكون الإنسان ، وهى تختلف فى الشرق عن الغرب من نواح عدة .

منها اختلاف اللغة ، فكل أمة تتعلم بلغة غير الأخرى ، وكل لغة لها تأثير كبير فى الأفكار والعادات وتكوين العقلية ، فلو قارنا مثلا بين اللغة العربية فى العالم العربى أو الأردية فى الهند ، أو الصينية فى الصين ، وبين اللغة الإنجليزية فى بريطانيا أو الفرنسية فى فرنسا ، وجدنا أن كل لغة تطبع أهلها بطابع خاص ، خصوصاً إذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع حتى تشمل الأدب ، فأدب كل أمة نتيجة بيئتها الطبيعية ، ونظام حكومتها استبدادياً كان أو ديمقراطياً .

ولغات الشرق عامة أقرب إلى بعضها منها إلى لغات الغرب ، وكذلك الآداب إذ كانت بيئات أهل الشرق متقاربة و بيئات

الغرب متقاربة أيضا ، وإن شئت فانظر إلى تأثير اللغة العربية والأدب العربي في العرب ، تجد أن كثرة المديح والتزلف إلى المستبدين أثرا في أهلها على حين نرى أن اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي أثرا في الإنجليز أثراً كبيراً غير ذلك . وقد أفاض الأستاذ «تين» الكلام في تأثير البيئة الطبيعية والاجتماعية في أدب كل أمة ، من ذلك أن العرب خاصة والشرقيين عامة ، أميل إلى النظر في الماضي ، والأوروبيون على وجه العموم أميل إلى النظر في الحاضر والمستقبل . ومن أجل ذلك نرى أهل اللغة الواحدة أقرب إلى التفاهم فيما بينهم ، وذوي اللغات المختلفة متباعدون في التفاهم ، ولذلك أيضاً لم يستسغ العرب في أيام مجدهم الأدب اليوناني ، كما استساغوا المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية ، لأن الأدب العربي كون مزاج العرب على نمط خاص يخالف الأدب اليوناني ، وإنما استساغوا الفلسفة والمنطق اليونانيين لأنهما يناسبان كل عقل وكل مزاج .

يضاف إلى ذلك أن الثقافة في الشرق متأثرة بالتعاليم الدينية في حين أنها في الغرب متأثرة بالعلم غالباً ، والثقافة الشرقية متأثرة بميل الشرقيين إلى التقليد على حين أنها في الغرب أميل إلى الابتكار ، فلا بأس عند الغربيين أن يغيروا منهج التربية أذا

أظهر البحث فساده ، ويضعوا منهجاً جديداً ، ولذلك اعتاد الغربيون تربية أولادهم حسبما تثبته نظريات التربية الحديثة . أما التربية فى الشرق فتكاد تكون تربية موروثة ، قل أن يدخل عليها تغيير .

والفرق بين الشرق والغرب يظهر بوضوح فى برامج المدارس ، فالناشئون يتعلمون النحو والصرف على أساس تعاليم سيبويه التى لم تتغير إلا قليلا ، ويتعلمون الطبيعة والكيمياء حسب النظام الغربى وهو كل يوم فى تغير ، وذلك مما يسبب الاضطراب فى تكوين العقل . ومن الأمثلة على ذلك أيضاً المقارنة بين التعليم فى الأزهر والتعليم فى المدارس المصرية والتعليم فى المدارس الأجنبية ، فالأول يمثل التعليم فى القرون الوسطى ، والثانى يمثل الخليط بين طرق الشرق وطرق الغرب ، والثالث يمثل مناهج الغرب البحتة .

ثم هناك فرق كبير بين الشرق والغرب ، وهو كثرة عدد الأميين فى الشرق وقلتهم فى الغرب ، وكثرة الأميين أو قلتهم تؤثران فى مدى الثقافة ، فالأبوان الأميان الشرقيان يملآن عقل الطفل خرافات وأوهاما ، وتسير الأم فى رضاعته وتغذيته وتنظيفه حيثما اتفق ، بينما الأم الغربية تكون فى الغالب مثقفة إلى حد

ما فتتبع فى تربية طفلها قواعد التربية ، حتى لو كانت أمية تتعلم من وسطها ما يعوض أميتها .

وكما اختلفت الثقافة فى الأوساط الشرقية ، من متعلمين وأنصاف متعلمين وأميين ، اختلفت الأمم الشرقية فى درجة حضارتها ، فهى فى الحجاز غيرها فى سوريا ولبنان ومصر ، وهى فى ذلك أشد اختلافا من أمم الغرب .

كانت الثقافة إلى عهد قريب فى الشرق مبنية على الدين بما دخل فيه من خرافات وأوهام ، شأنه فى ذلك شأن الحياة الاجتماعية على وجه العموم ، ثم انضاف إلى الدين الشعور القومى ، فأخذ الشرق يحتذى حذو الغرب فى مثله العليا ، ولا تزال الفكرة المؤسسة على الدين والفكرة المؤسسة على القومية متضاربتين ، وقد تجد هذا التضارب فى كل قطر من أقطار الشرق . قال خدابخش المسلم الهندى « إن النشء الجديد فى الإسلام يفكر تفكيراً قومياً أكثر منه دينياً » وكذلك انقسم المصلحون أيضاً قسمين : مصلحون يبنون إصلاحهم على الإصلاح القومى كمدحت باشا وخير الدين التونسى ، والسيد أمير على ومصلحون آخرون يؤسسون إصلاحهم على الدين كمحمد بن عبد الوهاب ، فلما تغلغل أثر الغرب فى الشرق ، رجحت كفة القومية .

وعلى كل حال انتقل الشرق فى ثقافتــه جملة انتقالات :
فانتقل فى أول الأمر على يد جماعة متنورين ، تأثروا بالغرب وتعاليمه فأخذوا ينشرون تعاليمه بين قومهم ، وكان من أول هؤلاء السيد أحمد خان فى الهند إذ أنشأ مدرسة « عليكرة » على أساس غربى ، وكما فعل محمد على فى مصر فى تأسيس مدارس على النمط الأوروبى ، وكان أول جيل من متخرجى هــذه المدارس يعترف بتفوق أوروبا ، وأمنيته الـكبرى أن يجد مجتمعاً متقدماً فى الشرق له حضارته الخاصة تعادل حضارة الغرب ، ولـكن هؤلاء وجدوا أمامهم متعصبين محافظين لا يريدون أن يفسحوا المجال لهؤلاء المتقدمين ، كما وقف أكثر رجال الأزهر أمام المدارس الحديثة ، وكما وقفوا ضد ما كان يجريه طلبة الطب وأساتذتها على الموتى من تشريح ، حتى اضطروا أحياناً إلى أن يشرحوا الجثث فى الخفاء . وقد استعان هؤلاء المحافظون بآراء كُتّاب كتولستوى ورسكن شنوا الغارة على الثقافة الأوروبية . ولـكن من حسن الحظ أن المعركة انجلت عن نصرة الأولين على الأخرين ، فلما انهزموا اضطروا رغم أنوفهم على أن يسايروا الحركات التقدمية ، فليس أحد يقول الآن بحرمة التشريح ، ولا بضرورة التوضأ من الميضأة حتى يكون صحيحاً . وتطور الأدب القديم إلى الأدب الحديث ،

يحذو حذو الغرب أحياناً ، وأحياناً ينفرد بشخصية شرقية حديثة خاصة به . حتى كان قصارى الأدباء المحافظين أن يقتبسوا من الأدب القديم أساوبه ومن الأدب الحديث موضوعه ، وأدرك المحافظين من الأدباء ما أدرك غيرهم ، فانهزموا وتراجعوا .

وغلب تأثر الثقافة بالفكرة القومية ، تقليداً للغرب ، وكلنا نعلم أن الغرب يعتمد فى استعماره على هـذه الفئات التى تمجد الغرب وتقتبس منه ، علما منه بألا تفاهم إلا بوحدة الشرق ، ومن أجل ذلك تسابق الإنجليز والفرنسيون فى نشر ثقافتهم ، لاعتقادهم أن من تثقف بلغة تعصب فى الغالب لأمتها . ولـكن خاب ظنهم أخيراً ، فإن من تثقف بالثقافة الأجنبية آمن بالحرية وكافح ضد الاستعمار وحاول التخلص بكل الوسائل من نير الأجنبى ولذلك نرى أكثر الزعماء الوطنيين ممن تعلموا فى البلاد الأجنبية كغاندى ونهرو والسيد أمير على ومصطفى كامل ونحوهم .

كما استعان الغربيون أيضاً على الاستعمار بفئة الرجعيين ، لأنهم فى نظرهم يؤمنون بفكرة القديم على قدمه ، ويودون إبقاء ما كان من غير أن يحركوا ساكناً ، وهذا من غير شك يخمد النفس ، ويبعدها عن الثورة ويمكن الاستعمار من تغلغله .

ومن أساليب الاستعمار العمل على نشر الجهل والأمية ،

فإن اضطروا إلى نوع من التثقيف اختاروا أبسط أنواع الثقافة .
ومن أجل ذلك وقع الصدام بين اللورد كرومر والمتنورين من المصريين أمثال سعد زغلول وقاسم أمين ، فكان اللورد كرومر يفضل نشر التعليم الأولى ويحارب التعليم الجامعى ، والآخرون بالعكس لأن انتشار التعليم الأولى لا يضر الإنجليز ويمكن لهم فى الأرض ، وانتشار التعليم الجامعى يزلزل أقدامهم ويوجد منارات يهتدى بها المواطنون .

وقد تراجع بعض المثقفين ثقافة غربية من الشرقيين إذ رأوا فى الثقافة الغربية عيوبا وفى الثقافة الشرقية القديمة مزايا ، ونادى بذلك بعض الغربيين أنفسهم خصوصاً بعد الحرب العالمية الأولى .
وها نحن نسمع الآن نقداً شديداً من أعضاء اليونسكو على بناء التاريخ وتعليمه على الحروب وتمجيد أبطالها ، ونادوا بإزالة ذلك كله وبناء تعليم التاريخ على الحضارة وانتشار العلوم . كما أدركوا أن الثقافة الغربية وإن تفوقت فى الفن والصناعة والعلم ، فهى خالية من الروح ، وأن خيراً للشرقيين أن يستمدوا من الغرب فنه وعلمه ويستمدوا من الثقافة القديمة روحها . وعلى الجملة فقد رفض الشرقيون التعاليم الغربية ككل ، وربما ساعدهم على ذلك ما رأوا من التباين بين أقوال الغربيين ، فكثيراً ما ينادون

بالمبادىء الإنسانية وقت الشدة وينسونها وقت الرخاء ، فتعد انجلترا مثلا الملك حسينا باستقلال البلاد العربية بعد الحرب ، وتتفق فى نفس الوقت سراً مع فرنسا على تقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ بينهما : وإذا تغيب جندى بريطانى لسبب من الأسباب تنمر الإنجليز وهددوا ، وإذا قتل الفرنسيون آلافاً من المراكشيين والمغاربة ، لم يحركوا ساكناً . كل ذلك أفقد الشرق الثقة فى الغرب ، وهم كما فقدوها فى السياسة فقدوها فى الثقافة ، لأن الثقة لا تتجزأ .

وقد كان للبعثات البروتستانتية أثر كبير فى إيقاظ الشرق لأن مبشريها كانوا أول من نشر التعليم فيه ، وكثير من قادة الرأى وزعماء الإصلاح تخرج على أيديهم ، وقد كان المعهد الأمريكى فى طهران مصنعاً تصنع فيه الرجال ، ويمكن تطبيق هذا على كافة المعاهد التبشيرية . وقد أدرك المبشرون أن التعليم ميدان فسيح للتبشير ، وأمدتهم الشعوب وخصوصاً أمريكا بأموال كثيرة لتحقيق غرضهم فأخذوا ينشرون العلم بين الشعوب الشرقية ، متخذين العلم وسيلة للتنصير . قال بعضهم « إن أهداف المدارس والكليات التى تشرف عليها الإرساليات هو التنصير ، حتى الموضوعات الدنيوية التى تعلم فيها تحمل معها الآراء النصرانية » واتخذوا من

المدارس التى نشروها كما قال بعضهم أسفينا لأن التعليم أنفع وسيلة يستغلها المبشرون لتنصير الأفراد واشترطوا فى الأساتذة المدرسين أن يكونوا مسيحيين ما أمكن لأن دين المعلم يؤثر ولو من طريق خفى فى تلاميذه ، ولذلك أيضاً ترفض المدارس التبشيرية أن تتقيد بالمنهج الرسمى للبلاد لأن أهم ما تقصده التعليم الدينى . وقد امتلأ المبشرون حماسة جعلتهم يتحملون أشق المتاعب فى سبيل التبشير .

وكان العلم فى أول الأمر قليل الانتشار فى البلاد الشرقية ، والكتب قليلة نادرة ، فانتهز المبشرون هذه الفرصة ، وأكثروا من المدارس التبشيرية ، ونشرت تعاليم التوراة والإنجيل أول الأمر ، فلما وجدتها لا تكفى درّست التاريخ والجغرافيا بعد أن صبغتهمابالصبغة المسيحية ، وحرفت حوادث التاريخ وأكثرت من الطعن فى الأديان الأخرى ، لتكرّه الناس فى دينهم وتحببهم فى المسيحية . ورأوا أن من خير ما يساعدهم اجتهادهم فى مدارس البنات لأنهن سيكنّ بعد أمهات . وقد نشط المبشرون نشاطاً غريباً أول الأمر حتى كان عدد التلاميذ فى المدارس الأمريكية البروتستانتية فى عام ١٨٩١ حول ١٥ ألف طالب ، وفى سنة ١٩٠٩ كان للأمريكان وحدهم بالشام ١٧٤ مدرسة منتشرة فى المدن

والقرى . وافتتحوا كل فرع من فروع المدارس ، من رياض الأطفال إلى التعليم العالى فى الجامعات ، فأنشأوا الجامعات فى بيروت وفى القاهرة وفى استانبول ، وأجبروا المسلمين على دخول الكنيسة فى مدارسهم ، فلما أضرب الطلبة قال قائلهم ما معناه « إننا نأخذ الأموال من المتبرعين بعاطفة نشر الدين ، فإذا أبطلنا الدين من المدارس لم نجد من يتبرع له » .

ولكن لم ينجح المبشرون كثيراً فى نشر الدين المسيحى مع كثرة ما بذلوا ، خصوصاً بين المسلمين ، فقد يمر العام أو العامان حتى يتنصر مسلم واحد .

ووضع المبشرون كذلك أنفسهم لخدمة السياسة ، فالمبشرون الأمريكون يبشرون بأمتهم ، وكذلك الانجليز والفرنسيون .

وقد ارتابت تركيا فى حركات التبشير ، فراقبت حركاتهم وضيقت عليهم ، وخصوصاً اليسوعيين لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية ، والبرتستانتية لأنهم يتراءون وراء العلم البريطانى ، وكانوا كلما وجدوا صعوبة لجأوا إلى قناصلهم ، فما وسعها إلا أنها منعت الأطفال من دخول مدارس المبشرين ، وجعلت التعليم فى هذه المدارس قاصراً على المسيحيين . وأخيراً فى عام ١٨٨٨ أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الأمريكيين بتاتاً .

ومن أعمال المبشرين خلقهم فى البلاد التى هم فيها أسباباً تثير الفتن وتؤدى إلى الحروب ، حتى بين الأمم الغربيـة بعضها و بعض .

ومما يؤسف له أن أكبر عداء المبشرين إنما هو للمسلمين ، حتى أن عداءهم فى هذا الباب أكثر من عدائهم للوثنيين ، و يظهر أن السبب يعود بعضه إلى ما كان فى الحروب الصليبية ، و بعضه إلى ما فى الإسلام من حث على الجهاد وعدم الخضوع للأجنبى . على كل حال ومع كل هذا الفساد ، كان للمبشرين فضل فى نشر التعليم .

وفى بدء القرن العشرين كان فى الشرق نظامان للدراسة يسيران جنباً إلى جنب : النظام المحلى فى الدول الإسلامية والهند والصين إذ كون الرجال الدينيون الكلاسيكيون أسساً للتعليم من أول مراحله إلى آخره ، فكان يمثل ذلك الكتاتيب حتى الأزهر قبل التغيير الجديد . والنظام الحديث وكان مبعثه الجاليات الغربية ، والاستعمار الأجنبى ، وهذا النظام يقضى بوجوب تعليم لغـة أجنبية واتخاذها لغة للتعليم بأكمله ، ولم يهتم بالثقافة المحلية إلا قليلا . وكان النظامان منفصلين ، ولم يستطيعا أن يحققا

الأغراض الاجتماعية والسياسية التى ظهرت على ممر الأزمان ، فكانا يفقدان القدرة على اجتذاب الجمهور ، حتى وجدت أخيراً محاولات ترمى إلى مزج النظامين ، فتجد فى المدارس الوطنية مقتبسات من القديم والجديد . ونظير ذلك ما حدث فى اللغة ، فقد أدخل فيها كلمات حديثة ، كما فعلت أوروبا فى العصور الوسطى ، وعن طريق إدماج بعض الكلمات أمكن اللغات الأدبية أن تساير النهضة الأوربية ، وقد حدث هذا فى كل لغة شرقية تقريباً .

فاللغة التركية مثلا كانت قد امتلأت بالكلمات العربية والفارسية وتأثرت بالآداب الإسلامية ولكن بالنعرة القومية حذفت اللغة التركية كثيراً من الألفاظ العربية والفارسية وتقربت للغة الشعب . وكادت الكتاتيب التى على النمط القديم أن تتلاشى ، وحل محلها مدارس على النمط الحديث ، والأزهر فى مصر الذى كان يذكرنا دائماً بالتعليم فى القرون الوسطى أصبح يقلد الجامعات الحديثة فى إدخال العلوم الحديثة ، وفى نظم الإدارة ، ونادى منادون بتغيير لغة الكتابة ، وإحلال الحروف اللاتينية محل العربية . وعلى الجملة فقد أصبحت الحالة فى الشرق تمر بمحنة خطيرة ، ونلاحظ أن الجديد دائماً يكتسح القديم . وربما كان نتيجة هذا الكفاح بين القديم والجديد محاولة المزج بينهما

وإرضاء للعسكرين . وهكذا الشأن فى المسائل الاقتصادية والاجتماعية ، فكما وجدت الثنائية فى الثقافة ، وجدت فى أكثر مرافق الحياة ، كالقضاء بين محاكم شرعية ومحاكم وطنية ، والأدباء بعضهم يحتذى حذو الأدب القديم ، وبعضهم يحتذى حذو الأدب الأوروبى ، وحتى الناس فى ملابسهم بعضهم يلبس الملابس الأوروبية وبعضهم يلبس الملابس الوطنية ، وقد نشأ من هذه الثنائية اختلاف فى العقلية حتى يكادوا لا يتفاهمون . ويشيع مركب النقص عند أهل النظام القديم أمام أهل النظام الحديث ، كما يشيع الشعور بمركب النقص عند أهل النظم الحديثة أمام الأوروبيين ، لأنهم يدركون أنهم ليسوا إلا مقلدين .

الفصل الرابع

الحظ والقدر فى الشرق

والسبب والمسبب فى الغرب

مما يميز الشرق عن الغرب شـيوع فـكرة الحظ والقدر فى الشرق ، وشيوع فـكرة السبب والمسبب فى الغرب . ترى فى الشرق الإيمان بالحظ والقدر فى كل شيء ، فهذا سعيد وهـذا شقى بالقدَر ، وهذا غنى وهذا فقير بالقدر ، و إذا خطا شخص خطوة فأصابه خير أو شر نسبه إلى القدر أو الحظ . والمريض يمرض ثم يصحّ أو يموت بالقدر ، وهكذا فى سلسلة الحوادث . وعقل الغربى فى ناحية أخرى ، فالفرد يكون شقيا أو سعيداً لسبب أو أسباب ينسب ذلك إليها ، من تربية حسنة أو سيئة ، ووسط صالح أو فاسد ، وأصدقاء يعاشرهم صالحين أو سيئين . والغنى والفقر سببهما نشاط العامل أو كسله ، واختياره للعمل الذى يلائمه أولا يلائمه ، ونظام البيئة الاجتماعى صالح أو فاسد . والأرض صلحت للزرع أو ساءت لوجود الحشرات ، أو الجو الذى يلائم أولا يلائم ، لا لشيء من الحظ أو القدر . وقد يعجز عن العلة فيقول :

أن لذلك النجاح أو الفشل سبباً غير معروف فلأجتهد فى أن أعرفه .

وربما كان سبب ذلك بناء الحياة فى الشرق على مجموعة من الأوهام والخرافات ، وإن لم يكن ذلك من الدين نفسه . فالدين الإسلامى يأمر بالعمل ويطالب بالجد ، ويقول أعقلها وتوكل ، وإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ولكن جاء أصحاب المذاهب كالأشعرى يقولون أن النار لا تحرق ، والماء لا يروى ، ولكن الله يوجد الاحراق عند وجود النار ، والرى عند وجود الماء . ومثل هذه التعاليم توجد فى معتنقيها إيمانا بالقدر لا حدّ له .

وفى نظير ذلك انتشرت فى الغرب التربية العلمية ، وهى عادة توجد عند معتنقيها بناء الحياة على السبب والمسبب ، فالحرارة تسبب امتداد الأجسام ، والبرودة تسبب انكماشها ، والمرض يصيب الإنسان لميكروبات أصابته ، فإذا احتاط من هذه الميكروبات لم تنله ، وإذا عرفت فليعط المريض ما يشفى منها .

كل هذا سبب توا كلا وتكاسلا فى الشرق ، ونشاطا فى الغرب .

ومما يمثل الاعتماد على القدر حكاية يحكونها أن رجلا فى قرية ضاعت فرسه ، فذهب جيرانه ليعزوه ، فقال لا تعزونى فليس أحد يعرف الخير من الشر . ثم وجدها ، فذهبوا يهنئونه

فقال مثل ذلك ، ثم فى يوم من الأيام ركب ابنه الفرس فوقع من فوقها فكسرت ساقه فذهبوا ليعزوه ، فقال ذلك أيضاً ، وصادف أن دخلت الأمة فى حرب ، فأخذ الملك يجمع الشباب الأصحاء ويقذفهم فى الحرب فتُرِك ابن الرجل فذهب جيرانه يهنئون ، فقال لهم « لا تهنئونى ولا تعزونى » فهذه الحكاية تفسر فلسفة الاعتماد على القدر . وبناء على ذلك لا ينسب الشرقيون النجاح والفشل إلى شىء فيهم ، إنما ينسبونه للقدر .

ويظهر أن كلا من الجانبين مسرف ، فالاعتقاد بالقدر اعتقادا صحيحا لا يصح أن يمنع من العمل ، لأن النتيجة مبنية عليه . وواضح أن العمل والمهارة والذكاء تسبب النجاح غالباً وعكسها يسبب الفشل غالباً . وعيب الإيمان بالسبب والمسبب أنه فى بعض الأحيان تتخذ كل الوسائل لنجاح المشروع فى دقة زائدة ومهارة فائقة ثم يفشل ولا يعرف السبب ، وقد يكون مشروع لم يدرس مثل هذا الدرس ولم يقم به مثل هؤلاء الرجال الأكفاء ، ثم ينجح مصادفة . وقد تكون أوراق اليانصيب مائة ألف أو أكثر فيكسب الجائزة الأولى أحد الناس ، وليس بأذكاهم ولا أمهرهم . وتعليل هذه الأحداث وأمثالها تعليلا علميا صعب إن لم يكن مستحيلا . فالطريقة المثلى إيمان بالقدر فى حدود لا تمنع الجد

والنشاط ، والإيمان بالسبب والمسبب فى حدود تجعل مجالا للحظ والقدر ، وهيهات أن يكون ذلك ، لأن الناس جبلت على الأفراط .

وتعجبنى حكاية ظريفة قرأتها من قديم ، وهى أن ملكا ووزيرا تناقشا هل هناك حظ أولا ، أنكره الملك وأقره الوزير ، فلما طال الجدل بينهما قال الملك للوزير : أقم لى الدليل على وجود الحظ ، فانتظر الوزير غياب الشمس ، وألقى القبض على اثنين يسيران فى الطريق ، وأدخلهما فى حجرة مظلمة . وكان أحدهما نشيطا والآخر كسولا ، فأما النشيط فقام يتحسس ما فى الحجرة فوجد وعاء فيه حب ، فوضع بعضه فى فمه فوجده حمصاً ، ومن حين لآخر كان يجد حصا يرميه للكسول . فلما أصبح الصباح وملأ ضوء النهار الحجرة ظهر أن هذا الحصى ماس ، وتكشف الأمر عن نشيط أكل حمصاً ، وكسول كسب ماساً . فذهب الوزير إلى الملك فرحاً بما صادفه من برهان ، فقال الملك قولة حكيمة : « آمنت بوجود الحظ ولكن بمقدار ما يوجد ماس فى حمص فى وعاء . »

فالمثل الأعلى رجل يبنى حياته على السبب والمسبب ، ولا يكفر بالقدر ، ولكن لا يبنى عليه شيئاً .

ونحن إذا قلنا أن هناك فرقاً بين الشرق والغرب فى

ذلك ، فليس معنى ذلك أن كل شرقى بنى حياته على القدر البحت ، ولا كل غربى يبنى حياته على السبب والمسبب ، ففى الشرقيين من يدينون بالسبب والمسبب و يبنون حياتهم عليهما ، وفى الغربيين من يتكلون على الحظ ، وإنما نقرر هـذا المبدأ اعتماداً على الأغلبية من الجانبين .

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

تختلف الحياة الاجتماعية فى الشرق عنها فى الغرب بحكم اختلاف كل العوامل الإجتماعية من بيئة ولغة ودين و تاريخ ونوع حضارة وغيرذلك . كتب تاغور إلى صديق له « أ كتب إليك من لندن ... وليس فيها سكر ولا ز بد ولا وقت فراغ ولا مكان هادى تستطيع فيه أن تستجمع أفكارك أو تعرف نفسك ، إنى أعيش الآن بين رجال الأعمال الذين ليس لديهم الوقت للتفكير إلا فى العمل ... إن قلبى يبحث عن غذاء ولكن بلا جدوى ، إنى أحلم دائماً ببلادى وما فيها من حياة سهلة بسيطة . إنى لا أستطيع أن أفهم كيف يرضى القوم هنا أن يعيشوا فى كل هذه القيود . . . إنهم يضخمون الحياة من حولهم آملين فى مستقبل أسعد . و إنى أخشى على الشرق هذا الفيضان المادى الذى يأتى من الغرب فيفقد حكمته البسيطة التى هى الحق . . . هؤلاء الذين يعيشون ليمتلكوا كل ماهو مادى ثم يصبحون بعده عبيداً لهذه المادة . القوة هنا للسلاح



... ولكن الحياة فى البساطة والسهولة

أما نحن فنبحث عنها فى شىء آخر ، هذا الشىء هو ملكنا لأنه ينبع من داخلنا ، أما هؤلاء الذين يبحثون عن القوة المادية فهم لا يعرفون مقدار مايفقدون . كيف يعرفون أنفسهم ؟ ليس عندهم الوقت الكافى لكى يدركوا أنهم غير سعداء ، حتى أوقات فراغهم إنهم يسرفون فى قتلها فى الملاهى أحياناً وفى الرياضة أحياناً خوفاً من أن يعطوا أنفسهم وقتاً يجعلهم يكتشفون فيه أنهم غير سعداء ، إنهم يخدعون أنفسهم ، ولكى يبعدوا عن أذهانهم هذه الخدعة يضعون لأنفسهم مقاييس تناسب هذه الحياة التى يحيونها ، فالثراء عندهم قوة لا تعادلها قوة ، وقتل أعداء الوطن فضيلة لا تفوقها فضيلة ، والفرد ترس فى آلة المجتمع .

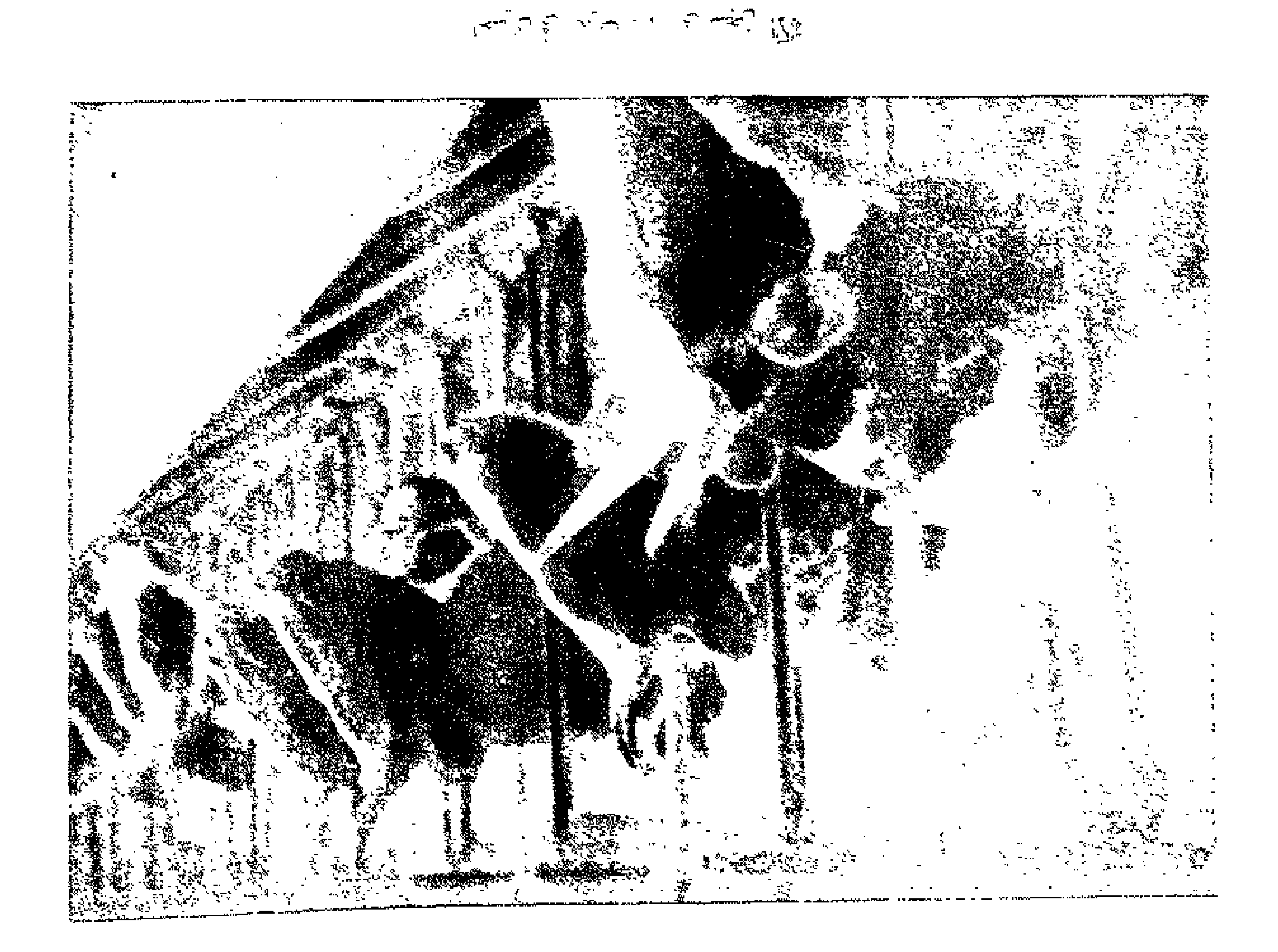
الحياة هنا ضخمة ، والرخاء مزدهر ، لكن ليست الحياة فى هذه الضخامة وهذا الرخاء ولكنها فى البساطة والسهولة . »

وتعجبنى حكاية قرأتها تمثل الحياة الأوروبية وهى أن شابا قال للسيدة التى يقيم عندها « إنى أصبح فى الصباح لأغسل وجهى وأبدأ فى حلق ذقنى و إذ ذاك أحفظ كلمات من اللغة الألمانية ثم أجلس للفطور فأتعلم اللغة الإسبانية ثم أذهب إلى عملى وهناك أقرأ اللغة الفرنسية » وهكذا ظل يحكى لها ما يفعله منذ أن يصبح

إلى أن ينام من تعلم لغات وأعمال وأنواع من الدراسات . فالتفتت إليه السيدة وقالت « كل هذا حسن ولكن متى تجد نفسك ؟ »

هؤلاء الأوروبيون يعملون كثيراً ويصرفون كل أوقاتهم في عمل ولكن متى يجدون أنفسهم ؟ إن التأمل والتفكير والخلو إلى النفس والاستمتاع بسماع صوت الضمير مزية من مزايا الحياة الشرقية . قال أحد فلاسفة الصين عن الحضارة الأوروبية « إن الفاشية والشيوعية نتاج لنوع واحد من التفكير ، فليس هناك أقرب إلى الشبه للعقل المتعصب لليمين من هذا العقل المتعصب لليسار ، كلاهما يعبد القوة ، ويقدس المنطق ، وهما أصل الفساد . إن الرجل المنطقي مخطئ ، وهو غير إنساني ، إنما الرجل غير المنطقي فهو يقول دائماً ربما أكون مخطئاً ولهذا فهو دائماً مصيب . لعل أهم العوامل التي تصبغ أوروبا بالصبغة غير الإنسانية هو تفكيرها المنطقي في السياسة . والواقع أني لا أخاف من مبادئ الفاشية والشيوعية بالقدر الذي أخافه من الروح المنطقية التي يعلمون بها النشء فيمزجون الفن بالدعاية والعلم بالوطنية والحكومة بالدين وحقوق الدولة بحقوق الفرد .

إن الحضارة الأوروبية لم تقدم للإنسانية إلا الصعوبات في الحصول على الطعام وإلا فما كل هذه المتاعب التي نجدها في



الحصول عليه ، فى حين أن الحيوان نفسه لا يجد نصف هذه المتاعب ؟ إن الأورو بيين أناس يرهقون أنفسهم فى العمل ويفخرون بأن ليس لديهم وقت ، إذن فماذا يملك أولئك القوم أن لم يملكوا وقتهم ؟

يرى الصينيون تناقضاً كبيراً بين كلمتى مشغول وحكيم ، فالمشغول لا يكون حكيما والحكيم لا يكون مشغولا ، والحكمة لا تصنع ، وإنما هى تأتى من الوقوف عن العمل بعض الوقت للتأمل فى الحياة .

ليس بضرورى أن تكون شخصاً مهماً أو مفيداً جداً ، فالخنزير يذبح إذا زاد شحمه ، ونحن نرى أن البلاد التى يزيد إنتاج أهلها تحطمهم الحروب ، بينما يسعد الشرقيون بالارتخاء أحياناً . »

طالما تمنى بعض الفلاسفة عالماً يجمع بين ماديات الغرب وتأمل الشرق ، وكان منظراً جميلا عندهم الاسكندرية فى عصورها الأولى إذ جمعت بين تأمل الشرق وماديات الغرب .

ولكن من غير شك لا يزال الغرب يمتاز ببناء حياته على العلم بينما الشرق كثيراً ما يبنى حياته على الخرافات ، وأحياناً يسير فى عمله حيثما اتفق من غير دراسة ولا بناء على نتيجة ثابتة .

الغربى يعلم أبناءه على ما اكتشف من قوانين التربية ،

ويتاجر على ما اكتشف من قوانين الاقتصاد ، وهكذا بينما لا يزال الشرق يعمل إما على قاعدة موروثة قديمة أو على وهم توورث أو حيثما اتفق ، بدعوى الاتكال على الله ، وكثيراً ما يقولون « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمهتدون . »

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية فى الغرب ظهور أثر المرأة فيها ، فهى زهرة المجالس وناشرة المرح فيها ، والقيمة على بناء أخلاق أولادها بناء مؤسساً على العلم كما ذكرنا ، وهى التى تحمل عبء الرجال فى أيام الحرب ، وتشاركهم حمل العبء فى أيام السلم . أما فى الشرق فالحياة مظلمة لأنها حرمت الاستضاءة بنور المرأة ، ولم تحمل عن الرجل العبء فى الحياة إلا فى القليل النادر .

ومما يلاحظ أن الروح فى الغرب مرحة متفائلة مهما تكن العوائق ومهما تكن العقبات ، والروح فى الشرق منقبضة أميل ما تكون إلى الحزن . وربما يلاحظ ذلك كثيراً فى الشبان الذين نرسلهم فى بعثة إلى الغرب ، فهم يظهرون بمظهر الحزن إلا إذا اختلطوا طويلا بالغربيين ، فإذا عادوا إلى بلادهم عادوا إلى عادتهم ، وربما كان ذلك نتيجة للظلم والاستبداد اللذين لا قوهما من الحكام ، ومن تسلط الطبقة العليا على الطبقة السفلى . قد تعجب من غناء الشرقيين وحبهم للموسيقى وحبهم للنكات

وغرامهم بالفكاهات ، ولكن لعل ذلك كله مما تدعو إليه الطبيعة للتعويض عما هم فيه من البؤس ولذلك ترى أبأس الناس أحبهم إلى هذه الضروب من التسلية .

يضاف إلى الفروق ما تخلفه الأديان المختلفة من نتائج مختلفة ، فيفشو فى الشرق الدين الإسلامى ، ودين كنفوشيوس فى الصين ، والبوذية فى الهند وغير ذلك . ويفشو فى أوروبا الدين المسيحى ، ولا شك أن كل دين من هذه الأديان يطبع أتباعه بطابع خاص . وكذلك اللغة لها تأثير عظيم فى الأمم ، فلغات الشرق لها أثرها كذلك ، ومن هذا القبيل الأدب ، فلكل أدب طبيعة خاصة ناشئة من بيئته ، ولكل لغة وأدب أثر فى الأمة غير أثر الآخر . أذكر أنى كنت فى مجلس الجامعة مدة سنين وكان فى المجلس مصريون وانجليز ، وكانت المناقشة تدور أحياناً باللغة العربية وأحياناً باللغة الإنجليزية ، فإذا تناقشنا باللغة العربية كثر الاستطراد والخروج من باب إلى باب ، وإذا كان الكلام باللغة الانجليزية قل الاستطراد وانحصر الكلام فى الموضوع . وكثيرا ما رأينا أن الرجل قد يكون شاعراً باللغة العربية وباللغة الفارسية معاً فإذا شعر باللغة العربية كان ذلك على نمط خاص وإذا شعر باللغة الفارسية كان على نمط آخر . وإذا كان هذا فى أمتين شرقيتين

فكيف بأمة شرقية وأخرى غربية ؟ ويظهر ذلك حتى فى الأشياء الدقيقة جداً ، فغرام اللغة العربية بتقديم الفعل على الفاعل فى الجملة إلا فى القليل النادر ، وغرام الانجليز بتقديم الفاعل على الفعل إلا فى القليل النادر لا يخلو من سبب عميق .

أضف إلى ذلك أن الحياة الاجتماعية لكل أمة تتأثر إلى درجة كبيرة بتاريخها من ظلم أو عدل ومن استسلام أو مقاومة ومن انتصار فى الحروب أو انهزام . ثم أن الأمم قد ترزق بزعماء أقوياء يغيرون مجرى التاريخ بينما أمة أخرى لم ترزق هذه الزعامة فيسير تاريخها على نمط واحد ، ومن ثم ترى الفروق واضحة بين الأمتين . لقد غير بيكون مجرى التفكير العلمى ، وغير روسو وفولتير نمط الأمة فى الاستسلام ، وغير كروموبل عادة الخضوع للملوك ، وهكذا فوجود الزعماء فى أمة دون أخرى مما يسبب الفروق بين الأمتين .

ومما يلاحظ أن الشرق كان إلى عهد كبير لا يشعر بحقوقه ولا واجباته ، فلما ارتقى وعيه شعر بالحقوق أكثر مما شعر بالواجبات ، وهذا طبيعى ، لأن الحقوق مطالب والواجبات تكاليف ، والمطالب ألذ من التكاليف ، وربما كان أمراً طبيعياً فى الأمم أن الشعور بالحقوق يسبق الشعور بالواجبات .

ولعل من أهم الفروق الاجتماعية الحالة الاقتصادية ، فمتوسط دخل الفرد فى الغرب أكثر من متوسط دخل الفرد فى الشرق ، وما يخص العائلة الأوروبية أكثر مما يخص العائلة الشرقية خصوصاً مع سيرهم على مبدأ ضبط النسل . وللحياة الاقتصادية أثر كبير فى الأسرة والأفراد . فالأسرة التى يكثر فيها الدخل أو يعتدل تستطيع أن تعيش عيشة اجتماعية أرقى وتتعلم تعليما أرقى وتفهم حقوقها وواجباتها فهماً أرقى ، وتستطيع أن تعيش عيشة أصح وهكذا ، لأن المال عصب الحياة ، وأعطنى مالا أعطك علماً وصحة وتمتعاً بكل مرافق الحياة .

والآلة الحكومية فى الشرق مصابة بالعقم والبطء ، والفوضى والمحسوبية وكثرة الجدل ، إذا طلبت طلباً فى أمر من الأمور نام نوما عميقاً مدة طويلة ما لم تسع وراءه سعياً حثيثاً بشتى الوسائل ، فقد بنوا سيرتهم على مبدأ عدم الثقة ، فالعمل البسيط لا يمر بسهولة بل لا بد من مراجع ومراجع للمراجع حتى ينتهى إلى الرئيس ، وذلك لكثرة ما حدث من الخيانة . ومع كل هذا التشديد لم يسلم الأمر من وقوع خيانات تكشف الفينة بعد الفينة . يضاف إلى ذلك الهرب من المسئولية ، فكل يريد أن يلقى العبء على غيره ليخلص نفسه مهما سبب ذلك من تعطيل .

وعندى أن من الخير بث الثقة بين الناس و بناء الأعمال على هذه الثقة ولو ضاع بذلك ملايين الجنيهات . إنه من الخير — مثلا — أن نبيح القراءة فى المكاتب من غير تقييد ولو ضاع من أجل هذه الحرية كتب بعشرين أو خمسين جنيهاً فى العام .

نعم أن فى الغرب بعض هذه العيوب ولكنها لم تبلغ جسامتها فى الشرق ، وتاريخها يدل على أنها مرت بالدور الذى يمر به الشرق ولكن الغرب تخلص من كثير من رذائلها .

كذلك يفضل الغربيون الشرقيين فى العناية بالنظافة ولو ظاهراً ، نظافة الأكل ونظافة المسكن ، و إذا رتبنا الدول الشرقية فى العناية بالنظافة ربما عددنا لبنان أولها ثم سوريا ثم العراق ثم مصر ثم إيران .

* * *

ودين الشرقيين أعمق فى نفوسهم ، ويكاد يتغلغل فى جميع أعمالهم وتصرفاتهم ، بينما الدين عند أكثر الغربيين يكاد يكون ظاهريا فقط ، وكما قال أحدهم أن أكثرهم يذهبون إلى الكنيسة كما يذهبون إلى التفرج على لعب الكرة أو سباق الخيل .

يفهم الغربيون من منطق الحوادث غير ما يفهمه الشرقيون ، ولذلك تختلف تصرفاتهم وسلوكهم أمام الأحداث ، و يحتاج كثير من الغربيين إلى شرقى يشرح لهم وجهة النظر الشرقية فى بعض

تصرفهم . أذكر أنى قرأت لأستاذ صينى الفرق بين الفلسفة الشرقية والغربية ، قال أن الفلسفة الغربية أعمق والفلسفة الشرقية أقرب إلى الحياة ، فمثل الفيلسوف الغربى مثل الغواص ، ومثل الفيلسوف الشرقى مثل العوام الذى يحتاج كل حين أن يطفو إلى السطح .

وهنالك فرق آخر وهو أن فلسفة الغرب أقرب إلى التخصص حتى لقد لا يعرف الفيلسوف فى مادته شيئاً عما تخصص فيه الآخر ، والفلسفة الشرقية أقرب إلى التعميم .

ويذكرنى هذا بقصة طريفة : أن عائلة ملكية انهارت فذهب طهاتها وخدمتها كل مذهب فوقع أحد الطهاة فى نصيب أحد الرعية فظن أنه يتقن الطهى إلى أقصى حد إذ كان طاهياً عند الإمبراطور . ودعا يوم بعض أصحابه ليأكلوا أكلا ملوكيا ، ونادى الطاهى وأخبره الخبر فقال : « لا يمكننى ذلك .. » فقال الداعى : « كيف وقد كنت طاهى الإمبراطور ؟ » قال : « إننى كنت أحد طهاة فرقة وظيفتها أن تقطع البصل لمن يعملون السلطة ! »

لا يحب الشرقيون المغامرة كما يحبها الغربيون ، فالشرقيون ألصق بالأرض ، وإذا نقل موظف من بلدة إلى بلدة أخرى بعيدة عنها عدّ هو وأهله ذلك كارثة ، وأكثروا من البكاء

والعويل ومن الغريب أن ذلك معروف أيضاً فى تاريخ قدماء المصريين . على حين أن الغربى مغامر فى تسلق الجبال وعوم الشلالات والقيام بالرحلات التى يكشف فيها جديداً ، أو يتعلم منها جديداً ، وكل يوم نسمع عن عبور بحر أو اكتشافات فى مناطق مجهولة أو نحو ذلك .

وربما عد من أسباب ذلك أن الشرقيين لم يكونوا حربيين فى زمن طويل ، والسلم يستلزم الإقامة ، والحرب تستلزم البعد والاستهانة بالأرواح وهما أساس المغامرة . وأذكر وأنا موظف فى وزارة المعارف ، أنى كنت أرجى كثيراً من مدرسين للانتقال من مدرسة فى حى من القاهرة إلى مدرسة أخرى فى حى آخر فيها ليكون بجوار بيته ، وكنت أعجب من هذه الروح كل العجب .

ومن الغريب أيضاً أن يعد المصريون النقل من بلد إلى بلد بعيد كقنا وأسوان عقوبة من العقوبات على الموظف الذى أساء ، حتى إن بعض المديريات السحيقة تئن بالشكوى مما فيها من موظفين نقلوا إليها لسوء سيرتهم وارتكابهم الجرائم .

وقد شهد القرن الثامن عشر والتاسع عشر انتقال الشرق من حياة العصور الوسطى إلى حياة حديثة فى كل شىء ، وتكشف ذلك عن انحلال النظم الاجتماعية ، والروابط العائلية القديمة ، وانهارت السلطة الأبوية فى الأسرة ، وتداعى النظام الإقطاعى ،

بتأثير العوامل الاقتصادية والثقافية الغربية الجديدة . ونزلت عن مكانتها الطبقة الارستقراطية وتقدمت الطبقة المتوسطة ، وخصوصاً فئة الصحفيين والمحامين . وانتقلت القوة إلى الطبقة المتوسطة فى تركيا ومصر ، وتغلبت على البلاط ، لأن الطبقة المتوسطة كانت أكثر وطنية . وفى تركيا تسكونت سنة ١٩٢٣ الجمعية الوطنية من موظفين سابقين منهم ٤٩ ظابطاً سابقاً و ٥٠ من رجال المحاماة والصحافة و ١٨ من رجال الدين ، يمثلون الطبقة المتوسطة . وفى مصر تسكونت الأحزاب الوطنية من اتحاديين يمثلون البلاط ، وأحرار دستوريين يمثلون طبقة الأعيان ، والوفد ويمثل الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين . وحاول السياسيون أحياء شعور الفلاحين أكثر من محاولتهم إدخال الوسائل الزراعية الحديثة عندهم ، وأكثر من إيصالهم إلى درجة مرضية لمحو الأمية .

وفى ثورة سنة ١٩١٩ اشتركت المرأة فى الحركة السياسية وترتب على ذلك أن طالبت بحقوقها ، وأنشئت لها جمعيات متعددة . وقد نالت بعض مطالبها ، كتحديد سن الزواج وتقييد الطلاق ، وقام الشباب بحركات حماسية قوية تطالب بالإصلاحات السياسية والاجتماعية .

والتطور اليوم فى الشرق على أشده تمتزج فيه السياسة بالاجتماع بالاقتصاد كما كانت أوروبا منذ مائة عام .

الفصل السادس

الحياة الاقتصادية فى الشرق والغرب

الزراعة والصناعة والتجارة

طبيعة الزراعة فى الأرض تقتضى علاقة قوية بين مالك الأرض وزارعها ، قد يكون المالك هو الزارع ولكن فى كثير من الأحيان يكون المالك غير الزارع . وقد أدى التطور التاريخى فى الشرق إلى وجود طبقة كبيرة يملكون مساحات واسعة يعمل فيها كثير من الفلاحين على نظام إقطاعى أو شبه إقطاعى . ومن النظم التى كانت متبعة فى بعض الأقاليم نظام الالتزام ، فيلتزم شخص دفع مال محدد للحكومة ثم هو يستغل الفلاحين كما يشاء ، فكان شره الملتزم يدعوه إلى أن يمتص دماء الفلاحين إلى أقصى حد مما استتبع فقر الفلاح وانحطاطه ووقوعه فى الديون المرهقة . وخلف الملتزمين طبقة الأعيان تعمل عملهم وتستغل استغلالهم ، وكثيراً من هؤلاء الأعيان يهجرون الريف ويسكنون المدن فى حياة بذخ وترف ولا علاقة لهم بالأرض إلا أخذ الأموال منها .

ودخل الفلاح العادى قليل جداً ، فالأسرة الفلاحة المتوسطة تزرع فى أرض تبلغ نحو أربعة أفدنة ، تصرف عليها فى تقاو وسماد وأكل بهائم ودفع إيجار ما لا يقل عن ٨٠ جنيه وربما كان المحصول يساوى ٩٠ أو مائة جنيه فيكون دخل الأسرة من عشرة إلى عشرين جنيهاً فى السنة بل قد يكون أقل من ذلك ، وهو مبلغ لا يسمن ولا يغنى من جوع .

وكثيراً ما يتسع بعض الشيء فى نفقته أو يشترى بعض الأرض بالدين بفائدة باهظة تأتى على كل ما فى يده .

والمبدأ المثالى هو أن تكون الأرض ملكا لمن يزرعها ، أما أن تكون ملكية الأرض لشخص ويزرعها آخر — كما هو شأننا فى الشرق ، فنظام فاسد ، إذ يمنح صاحب الأرض قسما كبيراً من دخلها دون أن يقوم بعمل أو جهد شخصى سوى شراء الأرض أو إرثها ، والاستيلاء على المال الكثير من غلة الأرض دون أن يعمل شيئاً . ثم إن الفلاح إذا شعر أن أغلب مجهوده لغيره قل نشاطه ، وأضمر الحقد للمالك ، ثم لا يبذل الجهد الكبير لإصلاح الأرض لأنه يعلم أنه سيخرج منها عاجلا أو آجلا .

وكذلك من المبادىء العادلة ألا يملك إنسان أرضاً أكثر مما يلزمه فى معيشته .

وكلما اتسعت مساحة الأرض سهل استعمال الآلات الحديثة ولذلك يمكن انضمام صغار الفلاحين إلى نقابات تزرع وتحرث فتكون الملكية لأعضاء النقابة جميعاً يمتلكون أسهمها على الشيوع .

* * *

هذا عن الزراعة ، أما الصناعة فى الشرق فقد ظلت على حالها فى القرون الوسطى ، ثم انحط شأنها . وفى أوائل القرن الثامن عشر كانت مقتصرة تقريباً على الصناعات البدائية ، كالنجارة وصناعة الأقفال ، وصناعة الأسلحة البدائية . قال من يصف الصناعة المصرية فى عهد نابليون « إن الصناعة قاصرة على الأدوات التى تستعمل فى الحياة اليومية ، ويُقتنع فى تغذية الأرض بطمى النيل والرمل ، ولذلك هبط جداً عدد العمال بالنسبة للفلاحين وراجت جداً السلع الأوروبية المنافسة للصناعة المحلية ، وانهارت أثمان الصناعات المحليـة لرخص أسعار السلع الغربية ، وأدى ذلك إلى فقر السكان فقراً مطرداً . وحتى البلاد الشرقية التى كانت تمتاز ببعض الصناعات كالنسيج فى مصر ودمشق ، انهارت صناعتها أمام البضائع الأوروبية الرخيصة ، إذ شتان بين صناعة تقوم على الآلات وصناعة تقوم على الأيدى . وكل الأعمال التى كانت تتطلب القوى المحركة كانت تعتمد على قوة

الإنسان لا على قوة البخار والكهرباء . وكانت رءوس الأموال اللازمة للصناعة قليلة وفى الأغلب فردية . ثم إن العمال ضعيفو الأجور كالفلاحين لا نقابة لهم ويخضعون لتقاليد آبائهم فى الصناعة والعمل . »

وربما عدت حركة محمد على أول محاولة فى الشرق للنهوض بالصناعة ، فقد احتكر التجارة وأنشأ الصناعات واستقدم الخبراء من الأجانب ولم يضن عليهم بالمال وأسس الورش الصناعية . وتقدم إليه أحد المهندسين الفرنسيين باقتراح استنبات القطن وإنشاء مصانع له فكان ذلك انقلاباً كبيراً وإن كانت مصر تعرف القطن من قديم . وقد أخضع هذه الصناعة لمشروعاته العسكرية . وسار هذا التصنيع من مصر إلى بلاد الشرق الأخرى . ولكن لم تأت الصناعة فى عهد محمد على بما كان مرجواً منها ، إذ كان الناس يهملون الآلات ، ويديرونها إدارة سيئة ، حتى أن بعض الآلات كانت تدار بالثيران ، ولم يقبل الناس إقبالاً كثيراً على الصناعة باختيارهم فكان أحياناً يأتى بالجنود ليقوموا مقام العمال . وكثير من الأوروبيين سجل فشل محمد على فى التصنيع . يضاف إلى ذلك محاولة الأوروبيين إفشال هذه الصناعات ترويجاً لسلعهم ، وتحقيقاً لمصالحهم ، لأن الشرق على العموم سوق هامة

لمنتجات المصانع الأوروبية ، وكثيراً ما تدخل الأجانب ليثقلوا كاهل الصناعات الشرقية ، حتى تموت بتعرضها للخسارة .

ولما كثر احتكاك الشرقيين بالغربيين ، وزاد وعى الشرقيين القومى ، عمدوا إلى وسائل للاستقلال السياسى والاستقلال الصناعى ، خصوصاً وقد كان عدد كبير من الصناع الأوروبين يعمل فى شركات كبيرة فى الشرق ، فتعلموا منهم الصناعة والإدارة الصناعية ، وقام فى الشرق نظام صناعى حديث.

وكان هناك عاملان كبيران فى تقدم الصناعة الشرقية :

(الأول) قيام الحرب العالمية الأولى وانقطاع الصناعات الأوروبية تقريباً عنهم فعمل الشرق على أن يكتفى بنفسه .

و (الثانى) سهولة المواصلات التى مكنت من بيع السلع فى الأسواق .

ثم إن رأس المال الأجنبى كثر واستخدم فى الصناعات فى البلاد الشرقيــة . وقد أمن الأجانب على أموالهم لاطمئنانهم إلى المحاكم المختلطة ، فوجدت مصانع القطن والسجاير والأقمشة إلى غير ذلك .

وحلت الصناعات الحديثة التى تعتمد على الآلات محل الصناعات القديمة التى كانت تستخرج باليد ، وبدأنا نشعر فى الشرق بطبقة

تعيش على أسلوب جديد من الحياة وهى طبقة العمال ، و بدأت تظهر فى الشرق مثلا كل العمال ، و بدأنا نسمع بإضرابهم وضغطهم على أصحاب رءوس الأموال لينزلوا على حكمهم و يرفعوا أجورهم و يحددوا ساعات العمل لهم . وسار العمل فى التصنيع سير الشرق فى المطالبة بالإستقلال فلما انتهت الحرب العالمية الأولى تبين أنهم يستطيعون أن يكفوا أنفسهم بأنفسهم ، فزادوا قوة فى التصنيع .

ومما زاد الصناعة قوة ازديادعدد السكان ، و إمكان تصريف السلع ، وتشجيع الصناعة المحلية بفرض ضرائب كبيرة على الواردات الأجنبية . ومنحت بعض الدول امتيازات لمن يقومون بالصناعة تشجيعاً لها ، كمنح الأراضى لإقامة المصانع عليها مجاناً ، والإعفاء من الضرائب والرسوم الجمركية على المواد التى تشجع الصناعة وهكذا . وأفاد الشرق مالديه من مواد أولية كثيرة غذت الصناعة ، كالقطن والصوف وقصب السكر والمعادن الأساسية كالحديد والفحم ومساقط المياه .

و إذا قارنا بين الشرق منذ خمسين عاما و بينه اليوم ، أدركنا مقدار ما قطعه من تقدم ، ولكن ما زالت الصناعة الغربية أكثر إتقاناً وتزويقاً ، والصناعة الشرقية ينقصها التجميل الأخير .

وقد نتج عن التصنيع تجمع العمال وكثرتهم ، وسرعان

ما ارتقى وعيهم القومى وإدراكهم ، فألفوا النقابات تطالب بحقوقهم ورفع مستوى معيشتهم . وكثيراً ما تملقت الأحزاب هؤلاء العمال وأغدقت عليهم الأموال لاستمالتهم . وقد أدى كل ذلك إلى تحسن مركزهم الاجتماعى ، والإصلاح من شئونهم الصحية والتعليمية إلى حد ما حيث لم يجد الفلاح شيئاً من ذلك .

* * *

والتجارة فى الشرق كانت بدائية كبدائية الزراعة والصناعة ، فكان التاجر حراً تمام الحرية فى أن يربح كما يشاء من غير تدخل من الحكومة ، فهو يشترى السلع بأرخص الأثمان ثم يبيعها بأغلى الأثمان . وكانت وسائل النقل كذلك بدائية ، على ظهور الجمال أو نحوها ، وهو فى ذلك يتعرض لأخطار كثيرة فكان يبالغ فى الربح نظير هذه المخاطر . وترك التجارة حرة من غير إشراف من الحكومة يعرض البلاد لإضرار كثيرة ، وقد رأينا فى الأيام الأخيرة من جشع التجار ما اضطر الحكومة إلى التسعير الجبرى والحد من حرية التجارة .

والتاجر إذا كان ذا رأس مال قوى احتكر سلعة أو سلعاً وتصرف فى أثمانها كما يشاء ، وهو لا ينظر فى تجارته إلى ما تحتاج إليه البلاد وما لا تحتاج إليه ، إنما غرضه الأول هو زيادة ربحه .

ويصور لنا كتاب ألف ليلة وليلة صورة لطيفة للتجار والتجارة في بغداد في القرون الوسطى ، وكيف كانت الأسواق التجارية والدكاكين واتخاذها ندوة في النهار وسامراً في الليل مما بقي في البلاد الشرقية إلى عهد قريب ، وكيف كانت تقدم فيها القهوة ويتكلم فيها في كل شيء ، وتكون هذه الندوات سبباً في عقد زواج ، أو وقوع طلاق . ولم يزل ذلك كله إلا بدخول المدنية الحديثة وتقليد الأوروبيين في نظمهم وعاداتهم .

* * *

هذا كله في الشرق ، أما في الغرب فقد حصل فيه انقلاب في كل هذه الأمور : ففي الزراعة اتجهت البلاد الأوروبية إلى أن تسد حاجاتها بنفسها ، ثم إلى استخدام العلم لإمكان استغلال الأرض أكبر استغلال ممكن ، فاستخدموه في التسميد وتحليل الأرض ومعرفة ما تصلح له من أنواع الزرع والعناية بالحرث وطرق الصرف ، والعناية بالمواشي بتربيتها والمحافظة على سلامتها من الأمراض .

أما تقدم أوربا في الصناعة ، فكان أكبر ، فبعد أن كانت الصناعة عنصراً ثانوياً للانتاج بعد الزراعة أصبحت هي العنصر الأول ، وتحول كثير من أهل القرى الفلاحين إلى الصناعة . فلما اجتمع العمال في مكان واحد انتشرت بينهم المبادئ التي جعلتهم

يطالبون بحقوقهم ويضربون لتحسين حالتهم . وساعد على نمو الصناعة اختراع الآلات العديدة ، كآلات الغزل والنسيج وآلات لصهر الحديد والصلب وغير ذلك ، فزاد عدد العمال وزاد نتاج الآلات . كما اخترعت آلات لاستخراج الفحم وصهره واستخراج ما فى البلاد من مناجم أخرى ، وكان من نتاج ذلك كله ازدياد الثروة وتحسن حالة الأهالى . وساعد على ذلك أيضاً إصلاح وسائل المواصلات وطرقها .

ونظم الأوروبيون تجارتهم ، ففتحوا لها أبواب العالم ونشروها فى كل مكان .

وعلى العموم كان من أثر التحول من الزراعة إلى الصناعة تغير النظريات الاقتصادية ، فظهر علماء فى الاقتصاد بحثوا المسائل الاقتصادية وجعلوا الاقتصاد علماً ، وأخضعوا التجارة لما وصلوا إليه من بحث .

وكذلك كان الأمر فى أمريكا فاعتمدت أول أمرها على الزراعة ، ثم تحولت إلى الصناعة ثم وضعت خططها الاقتصادية للسيطرة على العالم .

وكان لهذا كله أثر كبير فى النظام السياسى وفى أخلاق الشعوب ، فلما كان اقتصاد البلاد يقوم على الزراعة كان

الحكم يقوم على المزارعين وأصحاب الضياع والإقطاع ، فلما تحولت البلاد إلى الصناعة كان لظهور طبقة من الناس تمول المصانع وتشترى الآلات وتستورد المواد الخام ، وكان لتكوّن الشركات انعكاس فى الحكومة .

ولما تحول الفلاح إلى صانع وزاد دخله ارتقى وتمكن من إصلاح مسكنه وتربية أولاده وترقية معيشته . كما أن اتساع التجارة وتنظيمها خلقا طبقة من التجار لها نفوذ على الحكومة ونوع سيرها .

من هذا يظهر الفرق الكبير بين الشرق والغرب فى هذه الأمور الثلاثة ، الزراعة والصناعة والتجارة التى هى عماد الحياة ، فنراها بدائية كلها فى الشرق ، متقدمة فى الغرب . ونشأ عن تقدمها فى الغرب رقى الحياة الاجتماعية ، فهى إذا تقدمت فى أمة غلبت الفقر ، و إذا تغلبنا على الفقر تغلبنا على المرض والجهل والذل . أما فى الشرق فلما كانت بدائية حالفها الفقر غالباً ، واستتبعه المرض والجهل غالبا . وربما كان كثير من الفروق التى ذكرناها فى أبواب مختلفة ترجع إلى الاختلاف فى هذه الأمور الثلاثة .

ولا يفوتنا هنا أن التقدم الزراعى والصناعى والاقتصادى فى أوروبا لم يكن إلا وليد القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، أما

قبل ذلك فكانت حالة الغرب فيها أشبه بحالة الشرق ، مما يؤيد ما قلناه من أن المسألة تغير فى الظروف وارتقاء درجات فى السلم .

وقد مر دور طويل كانت سياسة الغرب فيه نحو الشرق منعه من استغلال موارده وتحسين صناعته ، حتى يظل فقيراً يعتمد فى حياته كلها على نتاج الغرب . ولم يصنّع الشرق نفسه ويحسن بعض الشيء حالته الاقتصادية إلا بعد كفاح . وأذكر أن اللورد كرومر غاظه إنشاء مصنع فى مصر لصنع البفتة ، لأنها تؤثر على سعر البفتة المستوردة من أوربا ، وفرض على المصنع ضريبة كبيرة اضطرته إلى الإغلاق . ولولا وجود اقتصاديين سلكوا كل السبل الممكنة وجاهدوا جهاداً كبيراً ، لما أمكن تحويل بعض البلاد من زراعية بحتة إلى زراعية صناعية ، وخير مثل لذلك ما فعله طلعت حرب فى مصر .

وفى البلاد الشرقية والحمد لله ثروات كبيرة موفورة ، لا تحتاج إلا إلى العلم والنشاط فى استخراجها . كم من الفلاحين ينفقون قليلا من وقتهم فى مواسم الزراعة ، ثم هم كسالى فى سائر العام ، لو عُلِّموا أن يستخدموا فراغهم فى تربية الدواجن وتربية النحل وتربية المواشى وفى سائر الصناعات الزراعية لزادت ثروتهم وتضاعفت ، ثم بعد ذلك تتحسن حالتهم الاجتماعية والأخلاقية .

وكذلك لو استطعنا أن نوفق بين نتاجنا الزراعى وصناعتنا وعرفنا كيف نغزل القطن وننسجه على شكل واسع يستغرق أكثره ، وعرفنا كيف نستخدم البترول فى صناعاتنا الواسعة لكانت الثروة مضاعفة ولا يكون ذلك حتى تعمّ فى البلاد نظم النقابات التعاونية على أسس سليمة .

والعلاقات الاقتصادية آخذة فى التغير والاتجاه نحو إفساح المكان الأول للصناعات الوطنية ، والاجتهاد فى تقليل استيراد البضائع من الغرب ما أمكن ذلك . ومنذ سنة ١٩٢٧ بدأت الصين كفاحها ضد التجارة الغربية ، فوضعت تعريفة جمركية خاصة بها ، كما فعلت الهند . وفى سنة ١٩٣٠ وضعت مصر تعريفة جمركية كذلك لتحمى منتجاتها المحلية . وكان مظهر الهند فى التحرر الاقتصادى فى الخمسين سنة الماضية مظهراً واضحاً . أما اليابان فكانت أكثر بلاد الشرق تقدماً فى الصناعات ، وغمرت التجارة اليابانية الأسواق لرخصها تبعاً لرخص عمالها .

وبدأ قادة الشرق يفهمون أن التحرر السياسى بدون التحرر الاقتصادى لا يكون إلا نصف النجاح . وقد اتخذ التحرر الاقتصادى فى الشرق شكلا إيجابياً وشكلا سلبياً ، فالشكل السلبي كان مقاطعة البضائع الأجنبية ، أو التقليل منها . وبدأت

المقاطعة فى الهند سنة ١٩٥٠ ، وقد تعلم منها الشرق كله هذا الدرس . وأما الشكل الإيجابى فالتوسع فى التصنيع ، ومما ساعد عليه تأسيس البنوك المحلية فى بلدان الشرق ، وقد استطاعت هذه البنوك أن تتبنى كثيراً من المشروعات العامة ، على أن دول الشرق قد تفاوتت فى نسبة رءوس الأموال الوطنية المساهمة فى بنوكها .

وعملية النقل الاقتصادى فى الشرق أصبحت مستطاعة بفضل تقدم المواصلات والنقل ، فبفضلها فتحت أسواق جديدة لم يكن يعرف عنها شيء كثير . وقد غزت المواصلات ووسائل النقل الشرق كله بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان من أهمها السيارات والطيارات ، فقد سهلت الانتقال إلى أماكن سحيقة لم يكن من السهل الوصول إليها . وقد نجحت السيارات والطيارات فى الشرق نجاحا كبيراً لقلة الخطوط الحديدية ولتفرق السكان فى إفريقيا وأواسط آسيا تفرقا شديداً . وفى جزيرة العرب سهلت السيارات والطيارات لا السكك الحديدية سبل التجارة . كان فى الحجاز سنة ١٩٢٦ أربع سيارات للعائلة المالكة فأصبح فى سنة ١٩٢٩ ألف وخمسمائة سيارة زاحمت الجمال مزاحمة جدية ، وكذلك الشأن فى صحراء الشام وصحراء بغداد .

***

وقد بدأت الحركة العمالية تتطور فى الشرق فى القرن الأخير وازدادت مكانة العمال فى المجتمع ، ولعبوا دوراً هاماً فى تاريخ الشعوب ، واضطرت الحكومة أن تتدخل لفض النزاع بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال . وكون العمال لأنفسهم نقابات ، بل إنهم كثيراً ما يخرجون عن النقابات نفسها و يفرضون مطالبهم ونظمهم فرضاً ، حتى اضطروا أصحاب رؤوس الأموال إلى أن يتحولوا عن موقفهم . وكل يوم نسمع اضطرابا جديداً قد ينتهى بثورة عنيفة . وتكون اتحاد دولى للنقابات فى هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ مطالباً المجلس الاقتصادى والاجتماعى بالعمل السريع على إقرار الضمانات الكافية لتمتع العمال بحقوقهم النقابية على اعتبار أن هذه الحرية تدخل فى باب الحريات التى يكفلها مجلس إدارة هيئة العمل الدولية . وفى سنة ١٩٤٩ أقر مؤتمر العمال الدولى الاتفاقية الخاصة بالتنظيم النقابى وهى تضمن أن يباشر العمال حقوقهم فى تأليف النقابات ومزاولة نشاطهم من غير تدخل من جانب أصحاب الأعمال ، و بلغ عدد الدول التى انضمت إلى هذه الاتفاقية إحدى عشرة دولة فى أول مارس سنة ١٩٥٣ ، ولا يوجد من بينها دولة من دول الشرق الأوسط إلا تركيا .

وكان مما له أثر كبير على حياة الشرق إقراره تطبيق قوانين

العمال على عمال الزراعة . وكان من أثر ذلك رفع أجورهم المنحطة خصوصاً فى بلاد لا تزال الزراعة غالبة على أمورها الاقتصادية . وقد بلغ عدد نقابات العمال الزراعيين فى مصر وحدها منذ صدور قانون النقابات الجديد سنة ١٩٥٣ ثلاثين نقابة ، تضم نحو ستة آلاف عامل ، و إذا قدر لها النجاح ازدادت تقدما وتزايد عددها .

* * *

وأمر آخر هام يفرق بين الشرق والغرب وهو أن الشرق على العموم لم يضع حداً فاصلا بين الاقتصاد والأخلاق . بل هو أخضع الاقتصاد للأخلاق ، وعلى ذلك سار الإسلام ، فحرم الربا ، وحرم الوصية لوارث لأنهما يضران ضرراً أخلاقياً . وعلى هذا أيضاً وضع غاندى فلسفته الاقتصادية ، فمن مزجه الاقتصاد بالأخلاق وضع جملة مبادئ . وهو لم يكن يؤمن بالنظريات الاقتصادية التى تسود أوروبا ، ولا بالنظرة الأوروبية المبنية على المنافسة والتى ترمى إلى جمع الأموال والإكثار من البضائع ، والتى كان المال لديها الخير الأعلى والإله المعبود .

أما النظرة الأوروبية فليست غايتها سعادة الجميع و إنما غايتها مضاعفة المال بأى وسيلة كانت . وقد سبب هذا الفصل بين الاقتصاد عن الأخلاق أضراراً جسيمة من فقر مدقع بجانب غنى شديد ،

واستغلال واستعمار و بطالة وحروب مما جعل المدنية الحديثة في خطر .

كان غاندي يرى أن الإنسان أرفع شأناً من المال ، فيجب أن لا يستعبده المال ، وقد قال « إن النظريات الاقتصادية التي تبعث على اغتيال قطر آخر واستغلاله ، وتتوخى جرح عواطف الشعوب ، ، وفرض سلطانها عليهم بقوة ، ليست بفاسدة فقط بل هي محرمة أيضاً ، و إن قيمة الصناعة يجب أن لا تقاس بالربح الذي تربحه الشركات بل بأثرها في حياة الناس وأخلاقهم وأرواحهم . » وهو يعتقد أن الأزمة الحاضرة في العالم ليست عسكرية ولا سياسية ولا اقتصادية بل هي أخلاقية . ومن رأيه البساطة في العيش وتحديد حاجات الإنسان ما أمكن فليست السعادة عنده في كثرة الحاجات والتمتع بها ، إنما هي في المعيشة البسيطة مع التفكير العالي كما كان يقول الرواقيون من قبل ، وذلك لأن الطموح إلى الرفاهية والاستكثار من الحاجات ساقا الناس إلى الجشع ، و إلى الحروب والهلاك .

ومن مبادئه أيضاً أن الإنتاج يجب أن يكون للاستهلاك لا للربح . إن الإنتاج في النظام الرأسمالي أساسه الربح ، فإذا لم يكن هناك ربح فلا إنتاج . ولا بأس عنده أن يجوع من الناس من يجوع

ويموت من يموت ، وتعدم السلع إعداماً إذا لم يمكن بيعها بربح .

ولذلك لا بأس عند الرأسماليين من أن يصاب العالم بالحرائق والزلازل والحروب إذا كان كل ذلك يؤدى إلى تصريف البضائع بربح . كان غاندى يرى هذا ضد الأخلاق وضد الإنسانية . على أن غاندى لم يكن يذهب مذهب الاشتراكيين فى السعى إلى وفرة الإنتاج حتى تتوافر الرفاهية للجميع ، فإن رفاهية الإنسانية وسعادتها فى رأيه ليست بوفرة الإنتاج بل بتحديد المطالب والحاجات الإنسانية .

وهو أيضاً يقول بتقدير العمل وتقديسه ، ويرى أن العمل هو الثمرة الطبيعية للطبع السليم . وكان يجلّ على الخصوص العمل اليدوى ويكره الكسل ويعدّه ألدّ أعداء الإنسان ، فدعا شعبه إلى احترام العمل اليدوى ، وكان هو نفسه يزاوله .

وكان يكره الآلات الهائلة والمصانع الكبيرة ويطلب الحد منها ، ومع ذلك كان يرحب بالآلات الصغيرة التى توفر مجهود الإنسان غير الضرورى ، وتنجد عدداً غير قليل من الناس ، كآلات الخياطة والنسيج . وقد دعاه إلى ذلك ما رآه من تجاوز عدد العاطلين فى الهند السبعين مليوناً وكان يعتقد أن الآلات

الكثيرة تزيد عدد العاطلين ، فدعا إلى تشجيع الصناعات اليدوية في الأكواخ ، والصناعة بالآلات الصغيرة .

ومن هذا نرى مدى اختلاف المبادئ الشرقية في الاقتصاد عن المبادىء الغربية ، ويعبر عن هذا أحسن تعبير قول غاندى :

« إن طريق الهند لا يماثل طريق الغرب الملطخ بالدم والذى تشمئز منه الهند وتمله . إن طريقها خال من سفك الدم ، مجرد عن العنف ، وهو طريق المعيشة البسيطة المبنية على الورع والدين ... »

الفصل السابع

الفرد والأسرة

يختلف أساس النظام الاجتماعى فى الشرق عنه فى الغرب . فالفرد وحدة الحياة الاجتماعية فى الغرب ، والأسرة وحدتها فى الشرق . ومعنى ذلك أن الفرد له أكبر الامتياز فى الغرب ، والأسرة لها أكبر الامتياز فى الشرق . ومظهر ذلك أن الفرد فى الغرب له أكبر حرية ، فهو يفعل ما يشاء ويرقى نفسه أو لا يرقيها كما يشاء ، وينصرف إلى الجد وينغمس فى اللهو ما يشاء ، ويتخير العمل الذى يشاء فى المكان الذى يشاء ، وليس لأسرته أن تتدخل تدخلا حاسماً فى ذلك . حتى الفتاة فى كثير من الأوساط أصبح لها من الحرية الفردية ما للفتى .

وقد ترتب على هذا الوضع جملة نتائج ، منها مثلا العلاقة بين الزوجة والزوج ، فمقتضى الفردية أن الزوج لا يتدخل فى شئون زوجته إلا بقدر ، فلا يصح مثلا أن يفتح خطاباتها ، ولا يمنعها حريتها فى حدودها ، وهى كذلك بالنسبة له . ومن ذلك أيضاً أن

هذه الحرية الفردية تنتج حتما النظام الديمقراطى ، فالحرية تناهض الاستبداد بجميع أشكاله ، استبداد الأب والأم واستبداد الحاكم ، ولذلك كان الغربيون على العموم أكثر ميلا إلى الديمقراطية . ومنها قلة التدخل مثلا بين الأب وأولاده ، والسيد وخدمه ، وصاحب المصنع وعماله . ومنها حب الابتكار فى الغرب ، أكثر منه فى الشرق كما سيأتى ، فالفرد إذا شعر بحريته كره التقليد ، لأن التقليد نوع من التقييد ومضمونه ضعف الفردية ، ففكر لنفسه وابتكر .

على العكس من ذلك الحال فى الشرق فأفراد الأسرة فى الشرق أكثر ارتباطاً منهم فى الغرب . يشعر الفرد فى الشرق بالمسئولية الكبيرة نحو أبيه وأمه وأخوته ، بل أعمامه وعماته ، وأخواله وخالاته ، وهو يعتز بعزة الأسرة ، ويذل بذلتها ، خصوصاً فى الأوساط البدوية وشبيهتها كالفلاحين . وكثيراً ما نسمع هذا من بيت فلان ، أو ابن عم فلان . ثم قد يضم البيت ، خصوصاً قبل انتشار المدنية الحديثة ، الأب والأم وأولادهما والإبن وزوجته وأولاده والبنت وزوجها وأولادها ، هذا عدا الأقارب . وكل الأسرة تتعير من فعلة قبيحة فعلها أحد أفرادها ، وتفتخر بفعلة حميدة كذلك ، بل قد يصل الشعور بالعار إلى حد قتل صاحب

الفعلة الشنعاء التى عدتها الأسرة عاراً ومجلبة للفضيحة .

وعلى العكس من ذلك الأسرة الغربية ، فهى تكاد تكون قاصرة على الزوج والزوجة وأولادهما الصغار . والاتصال بين الرجل وأخته أو عمته أو خالته اتصال خفيف ، وقد لا يكون بينه و بينهم اتصال أصلا ، و إذا كبر ابنه فعليه أن يبحث له عن عمل فى بلد آخر أو قارة أخرى ، وقد يمتد هذا إلى البنت أيضاً . وليس هنالك غرابة فى أن يكون أحد أفراد الأسرة غنيا جداً و بعضها فقيرا جداً ، ثم لا يعين الغنى منهم الفقير .

يضاف إلى ذلك من الفروق التى تتعلق بالأسرة أن المرأة الغربية تشارك الرجل فى سلطة البيت وقد تزيد عليه ، ويكاد يكون الزوجان متفقين على أن شئون البيت من سلطة المرأة ، وشئون الخارج من اختصاص الزوج . أما فى الشرق ، وخاصة قبل اتصاله بالمدنية الحديثة وتأثره بها فالحال غير ذلك ، فالسلطة للرجل حتى فى أتفه الأمور . ولا شك أن هذه الأوضاع كانت نتيجة لمؤثرات عميقة المدى فى التاريخ ، وربما مرت كثير من الأمم على الأدوار الطبيعية بالأسرة وحرية الفرد ، حتى ليكاد علماء الاجتماع يحددون أدوارها وأسباب انتقالها .

ولا شك أن من أهم أسباب الفروق بين الوضع فى الشرق

والغرب هو غلبة الزراعة فى الشرق وغلبة الصنعة والتصنيع فى الغرب . ولذلك نرى فى الأمة الواحدة فروقا بين وضع الأسرة فى الريف وبينه فى المدن .

ويحق لنا هنا أن نتساءل : أى الوضعين خير؟ إنى شخصيا مع استحسانى للحرية الفردية أرى أن الغرب أفرط فيها وأن الشرق قصر فيها ، فإفراط الغرب يظهر فى إلقاء الحبل على الغارب للشباب ، والشباب عرضة للزلل ، فترك الحرية للشاب والشابة لا إلى حد ، جر إلى هذا الفساد الذى يشكو منه الغربيون أنفسهم ، وبدأ الشرقيون السائرون على منوالهم يشكون منه أيضاً .

واعتقد — كما قلت — أن الأسراف فى الحرية ضار كالأسراف فى التقييد . وأما قوة العلاقة فى الأسرة الشرقية فهى على العموم خير من ضعفها فى الغرب ، لأنها تحمل العطف والأحسان والمعاونة وهى عواطف إنسانية نبيلة .

على أن شدة هذه العلاقة فى الأسرة من ناحية أخرى قد تضر ، إذ تحمّل بعض الأفراد أعباء فوق ما يستطيعون ، أو تفسد الأولاد بشدة الحنو عليهم .

والنتيجة أننا لسنا نرضى عن حرية الفرد فى الغرب ، ولا شدة الترابط فى الأسرة فى الشرق ، ونميل إلى تحديد الغلو

فيهما . ومن خير الأمثلة على الافراط فى العلاقات العائلية ووجوب الحد منه ما كان فى الجاهلية من سيرهم على مبدأ « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فهذا نتيجة لشدة الترابط ، فلما جاء الإسلام أراد أن يحدّ من هذا المبدأ وفسره بأن نصرة الظالم هى بأن يمنع من ظلمه ، وينصر المظلوم بدفع الظلم عنه ، أى أنه يفضل العمل بمبدأ الحق على الانقياد للترابط العائلى أو القبلى .

* * *

ولقد اعتاد الناس أن ينسبوا إلى الشرق تعدد الزوجات و إلى الغرب توحدهن ، و إن كانت اليابان وتركيا قد دخلت الآن فى عداد من يوحّد الزوجات رغم أنهما تعدان من الشرق ، وقل فى الشرق تعدد الزوجات خصوصاً فى الأوساط المثقفة . وربما كان هذا التعدد فى الشرق والتوحد فى الغرب ، وما ذكرنا قبل من حال المرأة فى الشرق وفى الغرب ، دليلا على أن المسألة مسألة تطور اجتماعى ، واختلاف فى درجات السلم أكثر منه مسألة شرق وغرب جغرافيين . فأوروبا عرفت تعدد الزوجات ، فقد انتشر بين « الصقالبة » والتيوتونيين ، و إيرلندا القديمة ، كما انتشر بين ملوك أوروبا الأقدمين وأمرائهم . فإن ملك إيرلندا فى أواسط القرن السادس عشر الميلادى كان متزوجا اثنتين وله خليلتان ،

وشارلمان الملك المشهور كان له زوجتان وخليلات كثيرات ، وفردريك وليم الثانى ملك بروسيا تزوج أكثر من واحدة .

وإذا نحن اقتصرنا على النظر إلى الناحية القانونية فهذا التمييز صحيح ، وهو أن قانون الشرق يبيح التعدد وقانون الغرب ونظام الكنيسة لا يبيحانه . أما فى الواقع فإن تعدد الزوجات فى الشرق ليس عاما ، بل نكاد نقول إنه قليل ، خصوصاً بين الطبقات المثقفة . وفى الغرب هذا التوحد صحيح قانونياً ، فالزوج يتزوج واحدة لا أكثر ، ولكن لا ننسى أن اتخاذ الخليلات كثير ، وقد يصاحبه أيضاً اتخاذ المرأة خليلا أو أخلاء وكان الأمر كذلك فى عهد الغربيين من اليونان والرومان ، زوجة واحدة ، ولكن خدينات كثيرات . فدعوى أن الشرق وحده هو الذى يعدد الزوجات لا تصح إلا فى حدود القانون الحرفى لا فى الحياة العملية ، بل لقد شاع فى الغرب العزوبة وعدم التزوج والاكتفاء بالتخادن .

والإنسان يتساءل : أيهما خير ، تعدد مشروع ، أو تعدد تحت طىّ الخفاء ، ومع الرياء والنفاق من غير أن يكون مشروعا ؟ ومع ذلك فنحن لا ننكر أن المثل الأعلى للأسرة زوجة واحدة لزوج واحد على أن ينفذ هذا فى صدق و إخلاص من الجانبين . أما زواج واحد ولعب متعدد ، فليس المثل الأعلى للأسرة .

الفصل الثامن

المرأة

تمتاز المرأة الغربية عن المرأة الشرقية بسعة ثقافتها ، بحكم أنها في الغالب تتعلم تعلما أرقى وبحكم أنها أكثر إطلاعا للعالم ، وبحكم مخالطتها للرجال ومحادثاتها الطويلة معهم ، وبحكم رحلاتها وماتتمتع به من حرية .

ويظهر ذلك كثيراً في تربيتها أولادها على أساس علمي لا خرافي ، كما يظهر في حديثها وتصرفاتها . أما المرأة عندنا في الشرق فهي حديثة عهد بعلم ، وقد كانوا في القرون الوسطى ، حتى إلى عهد قريب ، يحرمون تعليمها ، ويعتقدون أنها لم تخلق للعلم ولكن لتقعد في بيتها ، وتدير شئونه ، وهي حتى إلى الآن لم تبلغ مبلغا كبيراً في العلم مع السماح لها بدخول الجامعات ومع سفورها ومخالطتها الرجال ، ودخولها في الوظائف الحكومية والأهلية ، إلا في القليل النادر . وليست نساء المدن هي المقياس الصحيح للمرأة ، بل يجب أن ننظر إلى ذلك نظرة تشمل جميع نساء المجتمع الشرقي .

وضعف تعليم المرأة الشرقية يجعلها تؤمن بكثير من الخرافات ، كالأحجبة والجن والتعاويذ ، وتسير حياتها وفق هذه الاعتقادات ؛ نعم أن بعض النساء الأوروبيات يعتقدن فى الخرافات بدليل ما نسمع من حج إلى مشعوذين واعتقاد فى أشياء وهمية خرافية ، ولكن ذلك على وجه العموم لا يقاس بما عليه المرأة الشرقية فى ذلك .

ولقد جاهدت المرأة الغربية لكسب حقوقها على فترات ، حتى أصبح لها من الحقوق ماللرجال ، فهى مواطنة مثله : لها أن تعمل ، ولها أن تكسب ، ولها أن تنتخِب ولها أن تُنتخَب ، ولها أن تباشر أعمالها كما تشاء . وكان مما استدلت به أنها فى تكوينها البيولوجى والفسيولوجى كالرجل ، وأنها تدفع الضرائب وأن عليها من الواجبات القانونية ما على الرجل ، وتتحمل أعباء تربية الأولاد كما يتحمل الرجل أو أكثر ، بل وهى تشارك الرجل فى تحمل أعباء الحرب ، قد لا تقاتل كما يقاتل الرجل ولكنها تجهز للقتال ، وليس ذلك بأقل من حمل السلاح ، فلماذا بعد هذا كله تحرم من الحقوق التى يتمتع بها الرجال ؟ ؟ على هذا سارت المرأة فى الغرب ، أما فى الشرق فلم تكن لها كل هذه الحقوق . وكان الرجل يعد السيد والمرأة تعد عبدة ، حتى نالت بعض هذه

الحقوق بالتقليد ، ولا يزال المدى أمامها فسيحاً ، ولا تزال المعركة إلى اليوم قائمة فى حق المرأة فى أن تنتخِب وتنتَخَب وفى أن تشارك الرجل فى العمل فى الحياة العامة ، والزمن وحده كفيل للإجابة على هذه الأسئلة .

والحياة الاجتماعية فى الشرق جعلت العفة فى أول قائمة الأخلاق عند النساء ، حتى لقد يضحى الرجل بتعليم المرأة ومعرفتها شئون الدنيا فى سبيل عفتها ، و يود لو أن الأرض ابتلعته إذا سمع خيانة من زوجته أو ابنته أو إحدى قريباته ، نعم إن العفة فضيلة للنساء فى الغرب ، ولكنها لم تقوّم القيمة التى لها فى الشرق .

وتمتاز المرأة الشرقية بأنها تنظر إلى نفسها كأم لأولادها وسيدة لبيتها ، بينما المرأة الغربية تعنى أكثر ما تعنى بنفسها كفرد . فهى تعطى ملابسها وأصباغ وجهها وأدوات زينتها أهمية كبيرة ، لأنها تعلم أنها فى مجتمعها إن فقدت جمالها فقدت كيانها — أما المرأة الشرقية فهى تحس إحساساً جديداً بحياة جديدة وشخصية جديدة عندما تصبح أما ، لأن وجودها كأم يجعلها شخصاً مرغوبا فيه منذ الوقت الذى تلد فيه ، فتشعر أن هذا الطفل يجعل لها مكانة فى الحياة لا يستطيع أحد أن يملأها غيرها ، ولذلك تحزن المرأة حزناً شديداً إذا هى لم تلد لأنها تشعر أنها لم

تأسر قلب زوجها ، وقد يذهب إلى غيرها لينجب منها . أما المرأة الأوروبية فهى تهرب من الطبيعة وتحاربها ، فلا تود أن تكون أما ، و إذا أصبحت أما لم تحب أن تلد كثيراً ، لا خوفا من النفقات وحدها ، ولكن خوفاً من ضياع وقتها لأولادها ، وحرمانها من وقتها لنفسها ، وهى ترهق نفسها بالمحافظة على جمالها ، وكثيراً ما تحرم نفسها من عاطفة الأمومة . ولا ينال الأولاد من أمهم فى الغرب ما ينالونه من الأم الشرقية ، وهى تكره كل الكره أن تكون جدة لأن ذلك يشعرها بتقدمها فى السن . قرأت مرة أن سيدة أمريكية سئلت عن شعورها يوم أن أتى إلى الدنيا حفيدها فقالت : « لقد كان شعورى سيئاً جداً عند ولادة الحفيد الأول ولكنى اعتدت على ذلك . »

أما السبب فى أن تقدير المرأة الشرقية للأمومة أكبر من تقدير المرأة الغربية لها فلما ذكرنا من قبل من أن الفردية والشخصية تغلبان على الغربيين ذكوراً وأناثا ، بينما يغلب فى الشرق الرباط العائلى .

* * *

لقد مضى على المرأة الغربية زمن كانت تشعر فيه بحاجتها

الشديدة إلى رجل يظلها ويعولها ، فلما جاءت الحرب العالمية الأولى ، ونقص عدد الرجال ونقصت اليد العاملة منهم ، حل النساء فى كثير من الأعمال محل الرجال ، فلما زاولن العمل الذى كان يعمله الرجال ، رأين أن عمل الرجال لم يكن بالخطورة التى كن يتصورنها ، وليس عمل الرجال هذا بأصعب مما كانت تعمله المرأة بالبيت ، فقل اهتمامهن بالرجال وقل اعتمادهن عليهم ، وأقدمن على تحمل المسئولية بشجاعة ، فكان من جراء ذلك الحرية المفرطة والتعرض أحياناً للزلل ، وجاءت الحرب الثانية فزادت من كل ذلك ، وطالبت المرأة بالمساواة التامة بالرجل .

ونلاحظ من الفروق أيضاً أن المرأة الغربية بكل هذه الأعمال التى تزاولها تفقد أنوثتها بالتدريج ، وإذا بك تحدث المرأة الأوروبية أو الأمريكية فى أى مسألة من المسائل فتحس كأنك تحدث رجلا ، ولا تزال المرأة الشرقية فى الأعم الأغلب تحتفظ بأنوثتها ورقتها كما يشهد بذلك كل الغربيين الذين زاروا الشرق .

أنه لمن الصعب أن نحكم أيهما خير للمجتمعات البشرية ، فهذه النظرة الخاطفة ترينا أن فى كل من المرأة الشرقية والمرأة الغربية عيوبا ومزايا .

الفصل التاسع

التقليد والابتكار

يقول « ول ديورانت » فى مقدمة كتابه « قصة الحضارة » :

« سيدهشنا أن نعلم كم مخترعا من ألزم مخترعاتنا لحياتنا ، وكم من نظمنا الاقتصادية والسياسية ومما لدينا من علوم وآداب ومالنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق . وفى هذه اللحظة التاريخية حيث تسرع السياسة الأوروبية نحو الانهيار ، وحيث تنتعش آسيا بما يبعث فيها الحياة ، وحيث الاتجاه كله فى القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب ، فى هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمى الذى ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ التى تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها فى سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً فى تصوير الواقع ونقصاً فاضحاً فى ذكائنا . إن المستقبل يولى وجهه شطر المحيط الهادى فلا بد للعقل أن يتابع خطاه هنالك »

ويقول فيما قاله عن مصر « حسبنا أن نذكر من معالم حضارة

مصر نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية ، وأنها في أغلب الظن هي التي اخترعت الزجاج ونسيج الكتان والورق والحبر والتقويم والساعة والهندسة النظرية والحروف الهجائية ، وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس والحلى والأثاث والمساكن وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة ، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن فى البلاد ، وأنهم أول من أنشأوا نظام البريد والتعليم الابتدائى والثانوى والفنى لإعداد الموظفين ورجال الإدارة ، وهم الذين ارتقوا بالكتابة ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ، وهم أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردى والضمير العام ، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية وبالاقتصار على زوجة واحدة ، وأول من دعا إلى التوحيد فى الدين وأول من كتب فى الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت ... الخ . »

فإذا كان هذا هو تاريخ مصر وإذا كان هذا هو بعض ما ابتكرته ، وإذا كان تاريخ الهنود والصينيين وتاريخ العرب والفرس لا يقل روعة عن تاريخ مصر فما بال تاريخنا الحديث لا يظهر لنا إلا حب الشرق للتقليد ، واتباع الخلف ما سار عليه السلف أو اتباعهم ما سار عليه الغربيون ؟

يقول البعض أن الحياة فى الشرق سهلة بسيطة ، فهى تدعو إلى الخمول والكسل ، بينما الجو البارد فى أوروبا والطبيعة الصعبة والبحار الهائجة علمتهم الكفاح والنشاط ، فهم يكافحون فى الحياة لتحصيل القوت ، ومن ذلك تعلموا مكافحة الحكام إذا استبدوا ، وتعلموا النشاط فى كل شأن من شئون الحياة وتفتحت أذهانهم . والابتكار وليد الذكاء والنشاط والمهارة ، فلما اختص الأوروبيون بالنشاط والكفاح والذكاء اختصوا بالابتكار واختص الشرق بالتقليد ، هكذا قال البعض فهل كانوا على صواب ؟

لو نظرنا نظرة عامة فى التاريخ القديم لوجدنا أن الشرقيين ابتكروا ابتكارات لا تقل شأنا عن ابتكارات الغربيين ، انظر إلى ما ابتكره « بوذا » الهندى من اكتشافات فى النبات والفسيولوجيا وما ابتكره الهنود من العدد ، وما أثر عن الصينيين من ابتكارهم صناعة النسيج وتقدمهم فيها وأخذ الأوروبيين عنهم .

وأنجبت الحضارة الإسلامية مبتكرين فى جميع مرافق الحياة أمثال عمر بن الخطاب الذى وضع نظاما لحكم فارس والروم من غير مثال يعرفه ، إذ كان راعى إبل فى الصحراء ، واخترع ابن الهيثم نظريات كثيرة فى الرياضة ، ووضع أمية بن أبى الصلت تصميما لمركب غارقة فى بحر وقد نجح تصميمه ، فصعدت المركب

إلى سطح البحر ، وفكر عباس بن فرناس فى صنع الطائرات من قديم وطار بها مسافة لولا أنه لم يكن قد اكتشف البنزين .

أفبعد هذا يصح أن نقول أن الشرق عقيم والغرب ولود ؟ أنى أعتقد أن المسألة مسألة نهضة تدب فى روح الأمة فتجعلها فتية حية تخترع وتبتكر ، ثم شيخوخة تحل محل الشباب وضعف يأتى بعد القوة وتحفظ يسود بعد التحرر ، ثم يأتى بعد ذلك موت تطول مدته أو تقصر حتى تدب الحياة من جديد .

ولقد عاش الشرق فترة جمود طالت حتى اعتقد البعض أن الجمود خاصة من خصائصه . وقفت الحياة إلى ما وصل إليه الأولون ، فلا تقدم ولا تجدد . النحو والصرف الآن هما بعينهما نحو سيبويه وصرفه ، وموضوعات الأدب هى بعينها موضوعات الأدب التى قال فيها الأولون ، وأوزان البحور لا تزال تقريباً الستة عشر التى عرفها الخليل . قال ابن قتيبه :

« ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين ، فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى . أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العذاب الجارية لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى

أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والعرار .

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف . »

وطال زمن تقليد الشرق المتقدمين ، وجاءت النهضة الاوروبية فانتقل التقليد من متقدمى الشرق إلى محدثى الغرب ، فخير أديب من ذلك أدباء الغرب ، وخير نظام ما أخذ من أوروبا ، وخير فن ما قرب من فن الغرب ، والشاب يفخر أن جاء فى حديثه كلمات من لغات غريبة .

ولست أدرى ما سر هذا التقليد الذى ينتاب الشرق الآن ؟ إن مئات الشرقيين الذين يتعلمون فى أوروبا وأمريكا ينالون الدكتوراه بتفوق وهى درجة لا تعطى إلا نتيجة الأبحاث مبتكرة . كل ما فى الأمر أن الصناعة فى الشرق لم تبلغ ما بلغته فى الغرب والصناعة هى الأساس فى الابتكار ، فالمصنع إذا شعر فى صناعته بنقص ما أو بصعوبة ما ، كتب إلى الجامعة لتبحث نقطة النقص وتعالجها ، فكان من ذلك ابتكار جديد ، وليس عندنا مصانع كهذه ولا لها بالجامعات اتصالات كتلك .

وكل هذه الصناعات وابتكاراتها ناشئة من ابتكار أساسين أو ثلاثة ، كالبخار والكهرباء وما عدا ذلك فتوليدها . ولو رزق

الشرق فى العهد الحديث أساساً أو أساسين ، ورزق مصانع تولد هذا المبتكر وتستخرج منه ما يترتب عليه ، ورزقنا منهجا فى التعليم توجه الناشئين إلى الابتكار لا إلى مجرد الحفظ لانقلب الشرق رأسا على عقب . فنحن نعتقد أن التقليد فى الشرق عرض من الأعراض يمكن زواله ، لا طبيعة متأصلة فيه ، بدليل أن اليابانيين والصينيين فى العهـــد الأخير استطاعوا أن يتقدموا فى العلم تقدما كبيراً ، وأن يؤسسوا مصانع ضخمة ، فارتقوا فى الصناعة وابتكروا فيها .

* * *

والابتكار يمكن أن يشمل كل مرفق من مرافق الحياة ، فى الطعام ، فى الملبس ، فى المسكن ، فى الحربية ، فى علاج الأمراض ، فى الصناعة ، فى كل مواد الإنتاج ، فى الألعاب ، فى المذاهب الفلسفية والدينية ، فى مختلف أنواع العلوم والآداب والفنون ، فى نظم التربية إلى غير ذلك . وهو عادة يظهر على يد طائفة قليلة ، ثم يغزو القديم وينتصر عليه غالبا . ونلاحظ أن الابتكار قد ينتشر سريعا ، وقد ينتشر بطيئا ، تبعا للظروف والأحوال . وكلما كان الابتكار على يد أناس معروفين مشهورين كان انتشاره أنجح .

ومن الغريب أن كثيراً من الابتكارات وليدة الفرصة والحظ ، كاكتشاف الجاذبية من ملاحظة نيوتن لسقوط التفاحة ، واكتشاف قوة البخار من اهتزاز غطاء إناء .

وقد كثرت الابتكارات فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا وأمريكا نتيجة للانقلاب الصناعى .

ثم إن الحياة الاجتماعية لما تحررت من استبداد الحكام وأمراء الإقطاع ، وتحرر الناس من ظلمهم وقويت شخصيتهم وفرديتهم ، ساعد كل ذلك على الابتكار .

وتزيد الحاجة إلى التجديد فى الأزمات والحروب والكوارث والمجاعات وما يصيب الناس من السأم ، فيكون ذلك كله باعثاً على التفكير للخروج من هذه المآزق بالابتكار . ويزيد فى الابتكار أيضاً كثرة الثقافة وسعتها وارتقاؤها ، وانتشار التفاؤل فى الشعوب ، وحب الشجاعة والرغبه فى التحرر .

وليس المجددون متضامنين دائماً فقد يحدث أن بعض المجددين يذهب إلى شيء جديد ، ويذهب آخرون إلى شيء جديد آخر فتتصارع أنواع التجديد ، ويبقى الأصلح . فليس عدو الجديد هو القديم فقط ، بل قد يكون الجديد أيضاً . والشعوب المتأخرة تميل دائماً إلى اتباع القديم وتكره الجديد وتعده نقمة وكلما اتسع أفق

الشعب وقل تعصبه ، زاد عنده قبول الابتكار . كما أن الحكام المستبدين الظالمين يكرهون الابتكار والتجديد ، لأنهم يخشون على مراكزهم ، فقد يؤدى الابتكار إلى تفكير وعمل للثورة على ظلمهم .

وليس الابتكار مرادفا للثورة ، فقد تكون ثورة من غير ابتكار وابتكار من غير ثورة .

ومما يؤسف له أن الحرب أدت إلى الابتكار لما فيها من أزمات وخوف من الانهزام ، مع أن السلم قد يكون فيه من المتاعب ما يحتاج إلى ابتكار ، كالذى أعقب الحربين العالميتين الأولى والثانية من منازعات وخصومات واضطرابات استدعت الخروج على القديم فى النظريات السياسية والإقتصادية ولكن غلب على الساسة والاقتصاديين المحافظة والجمود لا الإبتكار .

والابتكار عادة ينبع من القديم مع تغيير فيه ، فنحن إذا نظرنا للثورة الاقتصادية فى انجلترا وفى الولايات المتحدة وفى ألمانيا وفى اليابان ، نجد أصولها موجودة فى النسيج الأصلى فى البلاد مع ابتكار استدعاه الحال .

وفى العادة يظهر المجددون المبتكرون ، فيناهضهم الرجعيون المقلدون إما خوفا من كساد تجارتهم مثل مناهضة أصحاب الجمال فى

صحراء العرب للسيارات وأصحاب الحمير للعربات ، وإما خوفا على مراكزهم ، لأن المجددين مسلحون بأسلحة خير من أسلحتهم . كما هى الحال فى كل محاربة تنشأ بين معهد جديد ومعهد قديم ، إذ العادة أن الجديد يكون أرقى فتكون العاقبة له إن عاجلا وإن آجلا . على أنه قد ينجح الشىء الجديد المبتكر ، لا لشىء إلا لمجرد الزهو باستعمال الأشياء المبتكرة كلبس « الموضات » .

وقد بالغ الشرقيون فى استخدام الأدوات الغربية المبتكرة ، مع أنه قد يكون فى عاداتهم القديمة ما هو خير منها .

وكلما كانت الأمور المبتكرة متمشية مع الطبيعة الإنسانية أو مساعدة على الراحة كان قبولها أكثر سهولة .

وقد تصادف المبتكرات حالة اجتماعية سيئة فتعوقها قليلا أو كثيراً ، كالإصلاحات التى نادى بها السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده فى مصر وأحمد خان فى الهند ، لأن الأمم لم تكن مستعدة للتغيير ، والحكام الشرقيين والمستعمرين وقفوا فى سبيل الإصلاحات المبتكرة لأنها ضد مصلحتهم . وبالعكس قد توجد ظروف تساعد على نجاح الإصلاح ، فنظرية النسبية لأينشتين جديدة مبتكرة ولم تجد صعوبة لأن من فهمها قليل من الراقين غير المتعصبين ، والجماهير المتعصبة لم تفهمها ، فلم تقف فى سبيلها . ومثل ذلك انتشار

الإســلام فى حينه ، وانتشار المسيحية بأوربا ، فقد وجدت فى كليهما ظروف اجتماعية ساعدت على انتشارهما .

وعلى الجملة ففى رأينا أن الشرق يمكنه أن يبتكر ويبتكر كثيراً ، لو أن الظروف الاجتماعيــة والاقتصادية ومناهج التربية تعاونت كلها على الابتكار . فنهوض الحالة الاقتصادية يمهد السبيل للابتكار الاقتصادى ، والحــكومة الصالحة ورقى الشعب يمهدان للإصلاحات الاجتماعية ، ونظام التربية الصالحة يطبع النشء بطابع يسأم من القديم ويخلق جديداً يغذى مطامعه ومطامحه . وفى هذا معنى أن الشرق ليس بطبعه عديم الابتكار .

الفصل العاشر

القيم الأخلاقية فى الشرق والغرب

تكاد تكون القيم الأخلاقية واحدة فى نظر الأمم المتحضرة جميعاً ، فتكاد كلها تجمع على عدّ الشجاعة والعدل وضبط النفس والصدق فضائل وضدها رذائل ، فهذه أمور لا يُختلف فيها بين شرق وغرب .

نعم إن الأخلاق الثانوية قد تختلف الأمم فى النظر إليها ، كمعاملة المرأة والأولاد ، والاشتغال بالتمثيل والغناء ، والقيام بأنواع الرياضات ، بل قد يكون الأمر محموداً ممدوحاً فى بعض الأمم ، مكروهاً مذموماً فى البعض الآخر ، كتعدد الزوجات وكذلك النوع من الأخلاق المبنى على العادات والتقاليد كعادة بعض البلاد فى دفن المرأة إذا مات زوجها ، ومثل بدع النساء فى تطويل الذيل أو تقصيره ، وفى الطلاق ، وفى حل زواج الأقارب عند بعض الأمم وحرمتها فى الأمم الأخرى . إنما الأمر المهم فى التقويم الخلقى هو اختلاف نظرة الأمم فى ترتيب الفضائل ، وعدّ بعضها أقوم من بعض .

وتؤثر فى ذلك عوامل كثيرة ، كالبيئة ، ومقدار الثقافة ، والحالة الاقتصادية . فمثلا كان العرب فى جاهليتهم فى حالة اجتماعية تجعلهم يضعون فى أول قائمة الأخلاق الشجاعة والكرم ، لأن الظروف كانت تحتم على كل إنسان أن يدافع عن نفسه ويحميها من غيره ، إذ لا حكومة قوية ترعى الأمن وتحافظ عليه . ولهذا ضعفت قيمة الشجاعة لما قويت الحكومات وتعهدت بحفظ الأمن فى البلاد . وكذلك فشا الفقر مع رحلات القبائل من مكان إلى مكان ومواجهة الناس ظروف كثيرة لا يجدون فيها ما يقيتهم ، لهذا كان الكرم من أعظم الفضائل . ولما كانت أوروبا ممالك تعتمد على الصناعة والتجارة ، كانت المحافظة على المواعيد والنظام ، والاقتصاد ، ونحو ذلك من أهم الفضائل عندهم . وفى كثير من بيئات الشرق ترى السماحة والنبل أهم الفضائل ، وإن لم تكن هذه الأخلاق أخلاقاً تجارية . كان لى صديق متزوج إنجليزية ، صدمت سيارته يوماً سيارة أخرى وكان الخطأ خطأ سائق السيارة الأخرى ، فنزل سائق السيارة الصادمة واعتذر لصديقى عما أصاب سيارته من تلف ، فقال صديقى هذا : لا أهمية لاعتذارك الآن ، فلنذهب أولا إلى من يصلح العربة ويقدر قيمة إصلاحها وتدفعه ، ثم اعتذر بعد ذلك فأقبل عذرك . عند ما قص

على هذه القصة قلت : إن هذه ليست أخلاقك ، إنما هى وحى من أخلاق زوجتك الإنجليزية ، فالمصرى عادة يتسامح فى مثل هـذه الأخطاء ويرجح جانب الـكرم ، بينما الأوروبى يرجح الجانب المادى ويؤاخذ كل إنسان بما ارتكبه . ومن أجل هـذا ساد فى أوروبا مذهب المنفعة الذى وضعه بنتام وجون استيوارت مل ، ومقتضاه أن العمل يقاس بما فيـه من لذة وألم لأكبر عدد ممكن فإن رجحت اللذائذ الآلام ففضـيلة ، وإلا فرذيلة . أما الشرق فيدخل فى الحساب الأشـياء المعنوية البحتة ، ويرى أن هنالك فرقاً كبيراً بين أن تقدم لصاحبك وردة ، وأن تقدم له قرشاً ، وإن كانت الوردة بقرش ، فإن تقديم الوردة الجميلة يحوى من المعانى والرقة وحسن الذوق ما لا يقدر بمـال .

وأذكر أيضاً أنى ركبت الترام مرة وبجانبى جلس ضابط انجليزى ، وأمامى عامل مصرى ، فلما وقف الترام فى إحدى محطاته أراد العامل أن ينزل من ناحية الشمال ، فأمسك الضابط الانجليزى برجله ليمنعه ، فظننت بحكم النظر الشرقى أنه يمنعه من النزول من الشمال رأفة به وخوفاً من أن يصاب بأذى ، فشكرته على صنيعه فقال : لست أقصد هذا ، وإنما أخشى أن ينزل مـن الشمال فيصدمه ترام آخر ، فيتعطل السير ، ولا أصل إلى المـكان

الذى أقصده فى الوقت الذى يجب أن أصل فيه !

وقرأت مرة قصة تروى أن ضابطاً انجليزياً كان فى الزمن الماضى يركب حماراً يوصله إلى ثكنته فى العباسية ، وانتهز الحمّار جهل الإنجليزى باللغة العربية فأخذ يسبّه سباً شنيعاً ، فاستوقفه مصرى آخر ثقل عليه هذا المنظر ، وقال للانجليزى أتدرى ماذا يقول الحمّار ؟ قال لا ، قال إنه يسبّك سباً شنيعاً . قال الانجليزى : أسبّه هذا يعطلنى عن الوصول إلى غرضى ؟ قال : لا ، قال : فدعه يقول ما يشاء . فهو قد قوم الأمر تقويماً عقلياً ومادياً دون أى اعتبار آخر . ولا يفعل الشرقى ذلك فقد يشغل نفسه يوماً بأكمله بمسألة جزئية لا تقدم ولا تؤخر .

هذه الحوادث الجزئية تمثل الفرق بين نظر الشرق ونظر الغربى . وعلى كل حال فليست هذه الفروق فى السلوك وفى تقويم الأخلاق مسألة شرق جغرافى وغرب جغرافى — كما قلنا أكثر من مرة — إنما هى مسألة درجات فى سلم الحضارة واختلاف فى البيئات ، بدليل أن الأمة الواحدة يختلف تقويمها للأشياء باختلاف تاريخها أو دينها أو نحو ذلك . لقد كان حجاب المرأة فضيلة كبرى والسفور رذيلة كبرى ، فانقلب الأمر وأصبح السفور طبيعياً والحجاب رجعية . وقد كانت مزاولة المرأة المصرية لمهنة

من المهن رذيلة ، فاستسيغت اليوم بسبب ما حدث من تغير فى اقتصاديات البلاد ، وهذا يدل على أن هذه الأشياء ليست طبيعية فى الأمم تبعاً لأقاليمها ، ولكن الاختلاف يتبع المنزلة فى المدنية ونوع المدنية .

إن كثيراً من الاختلاف بين الشرق والغرب يرجع إلى الأحوال الاقتصادية التى شرحناها من قبل ، و إلى سيادة الصناعة فى الغرب وسيادة الزراعة فى الشرق . ونظرة الصناع إلى الأخلاق غير نظرة الزراع إليها ، فالنظام مثلا فضيلة تتطلبها الصناعة أكثر مما تتطلبها الزراعة ، وارتباط الأسرة وتماسكها فضيلة تتطلبها الزراعة أكثر مما تتطلبها الصناعة .

* * *

ثم أن العلم لا الدين قد أصبح أساس الحياة فى المدنية الغربية وتبع ذلك أن العلماء اليوم هم الذين يرسمون الخطط و يدعون إلى الإصلاح ، بدلا من رجال الدين والأولياء . ومن الغريب أنهم مع إيمانهم بالعلم فى حياتهم يستندون إلى الدين إن احتاجوا إليه ، كما فى التعصب ضد المسلمين والتبشير ضد الوثنيين ، وفى تلك الحالات يتجلى فقط إيمانهم بالدين ، أما فيما عدا ذلك فلا دين . اعتبر فى

ذلك برجال الدين الجزويت ، فالفرنسيون لا يسمحون بفتح مدارس لهم فى بلادهم ، لأنهم يرمونهم بالتعصب الدينى ، ولكنهم يؤيدونهم ويشجعونهم على التبشير ، وفتح المدارس فى البلاد المستعمرة . ومنذ أن تحولت الأخلاق من دين إلى علم ، بطل الوعظ والإرشاد تقريباً ، لأن طبيعة العلماء تقرير مايعتقدونه حقائق من غير دعوة إليه ، أما طبيعة الدين فوعظ وإرشاد .

ومن الجنايات على الأخلاق فى الغرب انتشار الإعلانات عن السلع انتشاراً مزعجاً . وضرر هذه الإعلانات أنها لا تلتزم الصدق وأنها لا تقصد إلا إلى الربح ، سواء اتفق العمل مع الأخلاق أو لم يتفق ، وأنها دعوة خبيثة إلى الترف ، فالتشويق إلى محلات الرقص والملاهى ، والتشويق إلى النماذج الجديدة من السيارات وآلات الراديو ونحو ذلك ضار ضرراً بالغاً ، حتى من لم يستطعها من الفقراء أغروه باستخدامها بالتقسيط . ومن عيوب هذه الإعلانات ، وإن كان عيباً غير مباشر ، أن من طبيعتها الدعوة إلى الجديد دائماً ، والتحقير من القديم . فنموذج سنة ١٩٥٣ فى السيارة خير من نموذج سنة ١٩٥٢ ، وقد تبع ذلك الرغبة فى كل جديد ، وتفضيله دائماً على القديم ، وتبع ذلك أيضاً تفضيل الأخلاق الجديدة على الأخلاق القديمة تفضيلا عاما مع أنه قد

يكون فى الأخلاق القديمة التى كان يدعو إليها الدين ما هو خير من الأخلاق التى تدعو إليها الحياة الجديدة .

ومما زاد الأخلاق سوءاً أنهم نظروا إليها على أنها مسائل اعتبارية واتفاقية ، لا أساس لها ترتكز عليه ، كمذهب البرجماتزم الذى لا يرى شيئاً خيراً لذاته ولا شراً لذاته وإنما ما أوصل إلى الغرض كان خيراً على أى حال كان . ونظرتهم هذه كما أخذوا بها فى الأخلاق تبنوها أيضاً فى السياسة . ثم أنهم تبعوا دارون فى قوله إن أصل الإنسان حيوان وطبيعة الحيوان النمو والنضج من غير قائد ولا هاد ، فالشجرة تنمو من البذرة على سنتها الطبيعية ، ولا تحتاج إلا إلى دفع ما يعوق نموها ، فكذلك قالوا فى الإنسان ، هو سائر بطبيعته إلى نموه ، ولا يحتاج إلى هاد يهديه ، وبذلك استغنوا عن الواعظ والمرشد ، واستغنوا عن المبادىء الهادية . ونادى زعيم من زعمائهم وهو «لورانس» الأديب المشهور بأن القانة وحدها كافية فى هداية الإنسان ، وعلى هذا تكون كل مطالب الغرائز جيدة ولا تحتاج إلى تدخل العقل وضبطها إلا عند اضطرابها ، وعلى ذلك يكون السلوك ومبادىء الأخلاق والذوق لا قيمة لها بجانب الإحساس باللذة . وهذا الرأى فى منتهى الخطورة على السلوك الإنسانى . ولذلك كله يلاحظ الإحصائيون أن القائمين

بالأعمال الجدية يتناقص عددهم ، بينما المشتغلون بالملاهى والملذات يزدادون باضطراد ، فيزداد عدد الراقصات فى الملاهى وصناع السجاير وصناع أجهزة الراديو . . . . الخ . وهـذا مظهر لا يدعو إلى الارتياح .

ومما يلاحظ أن الأخلاق لا يكفى فيها أن تـكون مجرد قواعد عقلية كما يرى الغرب ، بل يجب أن تدعمها قوة روحية كما يرى الشرق ، يعتمد عليها ساعة اليأس ، وتعينه على مواجهة المشاكل . وقد كان فى الأخلاق من قبل هذا المعنى يوم كانت مرتبطة بالدين ، فلما أسست على العلم فقدت هذا المعنى . ولذلك اضطرب الناس واحتاروا ، فلما أحس العلماء بذلك بحثوا عن مقياس آخر يقيسون به الأخلاق ، فنهم من ذهب إلى أن مقياس الخلق هو مقدار مساهمة الشىء فى بناء العلم أو عدمه ، ولـكن هذا مقياس دقيق جداً لا يصلح للأشخاص العاديين وهم الجمهرة العظمى . ومنهم من ذهب إلى اتخاذ المنفعة مقياساً ، أى أن العمل يكون حسناً إذا أنتج أكبر سعادة لأكبر عـدد ، وهو أيضاً قول مشكوك فيه وليس مقياساً واضحاً يسهل الرجوع إليه . ولولا أن الناس لا يزالون عندهم بقية من تقديس الأخلاق المبنية على الدين ، وخصوصاً الجماهير ، لساءت الحال أكثر من ذلك . وعلى

الجملة فقد هجر الغرب فكرة ارتباط الأخلاق بالدين ، ولكنه لم ينجح فى إحلال شىء ثابت محله ، والشرق لا يزال يؤسس الأخلاق على الدين ، ولذلك يقدسها .

وكلامنا هذا منصب على الشرق قبل أن يقتبس كل شىء من الغرب ومنها الأخلاق .

الفصل الحادى عشر

مادية الغرب وروحانية الشرق

اعتاد الكاتبون أن يصفوا الشرق بالروحانية ، والغرب بالمادية . حتى قال فنلبند فى كتابه تاريخ الفلسفة أنه قد التقت فى الإسكندرية أيام أينعت فلسفتها ، مادية الغرب بروحانية الشرق ، وجرى على أثره كثيرون . وقد طعن — أخيراً — فى هذا المعنى بعض الكتاب إذ قالوا إن الغرب يفوق الشرق أيضاً فى الروحانيات كما يفوقه فى الماديات فنجد أن عواطفه أرق ، وأن عنايته بالمستشفيات والملاجئ وتنظيم الأحسان أرقى . فإن أردنا بالروحانيات الخرافات والأوهام كتحضير الجن والسحر فالغرب فيها حقاً خير من الشرق ، وإن أريد بالروحانيات رق العواطف وأعمال البر والأحسان فذلك فى الغرب خير منه فى الشرق أيضاً ، و بناء على ذلك يكون الغرب أرقى فى الماديات والروحانيات جميعاً .

ولكن يظهر لنا أن للمسألة وجها آخر غير الذى ذهب إليه

هؤلاء الكتاب ، وهو أن الناحية الروحانية غير الناحية العقلية وغير الناحية العاطفية ، ويتجلى ذلك فى الشرق فى أمور :

الأول : أن الشرق منبع الديانات الكبرى ، فاليهودية والنصرانية والإسلام وهى الثلاثة أديان الكبرى فى العالم ، بل ومذاهب بوذا وكنفوشيوس وزرادشت ، كلها نبعت فى الشرق ، وانتقلت منه إلى الغرب ، وقد كانت ولا تزال فى الشرق أعظم منها فى الغرب . ولا شك أن هذه الأديان كلها تبعث فى النفس روحانية على نحو غير مايقصد بالناحية العقلية والعاطفية منها .

ومن خصائص هذه الروحانية مزجها الطبيعة بما فوق الطبيعة ، والاعتقاد بأن الله سبحانه سبب كل ما يحدث فى العالم من خير أو شر . وتقرأ الكتب الثلاثة السماوية من توراة وانجيل وقرآن ، فتراها تكرر أن كل ما فى العالم من صنع الله ، وهو المدبر له والمنظم لشؤونه حتى أدق الأشياء « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وهو الذى يرسل السحاب ، وينزل الغيث ويخالف بين الألوان والألسنة ، وهو الذى يقدر سعادة الإنسان وشقاءه ... الخ الخ .

وعلى الجملة فإن هذه الكتب وما جرى على منوالها لها تعاليم ومنهج غير التعاليم والمناهج التى تجدها فى الكتب الغربية الحديثة . وقد أدرك أبو هندو فى القرون الوسطى ذلك فألف كتابا فى الفرق بين أساليب القرآن وأساليب اليونان .

ولا شك أن هذه المناهج المختلفة بين أساليب الكتب المقدسة وأساليب الكتب الغربية لها أثرها المختلف فى الشرق والغرب . ولسنا ننكر أن فى الغرب روحانيين مشهورين مثل سبينوزا ومثل ما سمعت به من جمعيات صوفية فى چنيف كان يرأسها المرحوم عنايت الله ، وكانت تضم متصوفين من كل الأجناس .

وأنا أعتقد أن فى كل إنسان قبسا من هذه الروحانية يختلف كبراً وصغرا ، شأن الناس فى ذلك شأنهم فى الحب .

والروحانى قادر على الاتصال بالروح الأبدية والسمو إليها وإدراك كنهها ، وهو دائما يقول : أنه إذا وصل إلى ذلك رأى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر . والروحانى من هذا القبيل يرى أنه يصل إلى هذا الحد بقلبه لا بعقله ، ويرى أن إدراك ذلك بالقلب أقوى من إدراكه بالعقل . وقد حكوا عن أفلوطين أنه وصل إلى هذه الدرجة فى حياته مرة

واحدة . وحكى عن غيره أنه أدرك هــذه الدرجة مراراً حتى أصبحت طوع يده ، كما حكى ابن طفيل فى كتابه « حى ابن يقظان » .

الثانى : أنه كان من أثر انتشار الأديان والتعمق فيها أن قيست أمور الحياة بمقياس غير مادى ، فالعمــل فى الغرب يقاس بنفعه أو ضرره فقط ، أما فى الشرق فإنه يقاس أيضــاً بمقياس حلّيته وحرمته ، برضى الله عنه أو عدم رضاه . وقد بلغ هذا النظر بالغرب إلى حــد أن نشأ مذهب كبير يرى قياس الأمور خيرها وشرها بمقياس اللذة والألم . من أجل هذا كان ترتيب الفضائل فى الشرق غيره فى الغرب ، فالمروءة والسماحة والنبل والطاعة من أكبر الفضائل فى الشرق ، بينما يعد من أكبر الفضائل فى الغرب حفظ الميعاد والاقتصاد والصدق فى المعاملة .

الثالث : أن الناس فى الشرق عادة — وهذا من أثر الأديان أيضاً — يقدرون فى أعمالهم وغاياتهم فى أعمالهم الحياة الأخرى كما يقدرون الحياة الدنيا ، فحسبوا حساب ما ينالهم من الجزاء الأخروى بجانب الجزاء الدنيوى ، وأضافوا فى أعمارهم الآخرة إلى الدنيا ، ولا شك أن هذا نوع من الروحانية . أما الغربيون فالدنيا وحدها هى التى تدخل فى حسابهم .

إن الشرقيين يبنون حياتهم على الاعتقاد بأن هناك عالماً آخر هو المسمى بعالم الغيب ، فيه الجنة والنار ، وفيه الملائكة والجن ، وفيه المعجزات ... الخ وكلها أمور روحانية لا مادية يحار فيها العلم .

نعم ، إننا لا ننكر أن بين الغربيين من يبني حسابه على جنة ونار ، وعلى دنيا وآخرة ، ولكنهم ليسوا كالشرقيين في ذلك وحتى هذا القدر كان نتيجة للاعتقادات الدينية التي انتقلت من الشرق إلى الغرب .

الرابع : أن من مظاهر الحياة الروحانية في الشرق الاعتقاد بالقضاء والقدر والحظ وكرامات الأولياء ونحو ذلك ليس له نظير في الغرب .

الخامس : ما يظهر في أعمال الغربيين عادة من إمعان في حساب الربح ، فإن رجحت كفة الفوائد بعد حساب النفقات أقدموا على العمل وإلا فلا ، ولا نظر عندهم إلى خير الإنسانية أو ضررها .

فالمصانع الكبيرة لإنتاج الآلات الحربية من مدافع وطيارات وغواصات وأمثالها تقوّم على مقدار ما تنتجه من الربح ، ولو أهلكت الملايين من الناس . والنظر الروحاني في هذه الأعمال

يختلف كل الإختلاف عن هذا النظر المادى ، فهو لا يبيح إنشاء مصانع لآلات القتال لأنها تبيد الإنسانية و إن أربحت مالا وفيراً . وقد كان غاندى فى بعض مواقفه يتحدى بروحانيته العالم المادى كله بقنابله وأساطيله وطياراته وغواصاته وكثيراً ما كان ينجح ، وهو الرجل الضعيف الأعزل الذى يعيش على لبن ماعز .

* * *

وكثيراً ما نعى المصلحون على أوروبا إفراطها فى المادية ، وعبروا عن ذلك بقولهم : « إن الغرب قد اختل توازنه ، فنما هله ، ونمت صناعاته ، ونما علمه ، ونمت كل مرافق الحياة ، ولكنه لم ينم قلبه . » وهذا التعبير يساوى ما قلناه من قبل فى الحياة الروحانية والمادية .

نعم ، إن الروحانية فى الشرق بولغ فيها ، كما بولغ فى مادية الغرب ، فاعتراها كثير من الخرافات والأوهام من تدجيل وتخريف ، واعتقاد شديد فى الأرواح ، وغير ذلك من الأوهام . و يظهر ذلك أكثر ما يظهر فى الناحية التى تشيع فيها الروحانية كالتصوف . فكم منى التصوف بالدجالين ، لأن التصوف مبنى على الذوق لا على العلم والعقل ، و إذا بنى على الذوق أمكن أن تقوم فيه الادعاءات الكاذبة والأقوال الفاسدة .

ومن النتائج السيئة لهذه الروحانية المفرطة الكسل والقعود عن العمل والضعف وعدم الأخذ بأسباب القوة ، مما جعل حياة الناس فى عزلة ، يعيش أكثرهم عالة على بعضهم . والحق أن هناك روحانية صادقة تدعو إلى العمل لا إلى الكسل وتؤمن بالقدر ، بقدر .

ويظهر أن هذه التفرقة بين مادية الغرب وروحانية الشرق تفرقة عميقة فى ثنايا التاريخ ، فهم يحدثوننا أن فلسفة الهند من قديم الزمان كانت متجهة إلى تحليل النفس الداخلية وتأملاتها ، وتعدوا فى ذلك منطقة الحواس ووفقوا فى اكتشاف أشياء كثيرة . أما اليونانيون فكان اهتمامهم موجها إلى معرفة قوانين العالم الخارجية ، وتحديد مقام الإنسان فى العالم الخارجى . فكانت نزعتهم خارجية فى حين كانت نزعة الهند داخلية . أما الصينيون فلم يهتموا بطبع الإنسان الداخلى ولا بالطبيعة الخارجية ، بل اهتموا بعلاقة الإنسان مع الإنسان . وانبنى على ذلك اختلاف فى الفلسفات : فالفلسفة اليونانية منذ القدم اهتمت بعمل الإنسان الخارجى أكثر من اهتمامها بالإنسان نفسه . نعم إن بعض فلاسفة اليونان الأقدمين رأوا الإنسان جوهرا روحانيا ولكن أرسطو حوّل الفلسفة إلى الاهتمام بأعمال الإنسان فى الحياة ، وتأثرت الفلسفة اليونانية بقوله « إن الإنسان حيوان عاقل » .

وإذ كان الأوروبيون وارثى الفلسفة اليونانية فقد تأثروا بها وجروا فى طريقها . وقد بالغ الأوروبيون فى القرن السابع عشر فى الدعوة إلى قهر الطبيعة والتغلب عليها . فالفلسفة الغربية تدعو إلى الكفاح ضد الطبيعة ، والفلسفة الشرقية تدعو إلى مصادقة الطبيعة .

وبهرت الانتصارات العلمية العقل الغربى فزاد الغربيون فى طريقتهم تحمساً ، وبالغوا فى اعتناق قول أرسطو أن الإنسان حيوان عاقل ، فذهب دارون إلى أن الإنسان إنما تسلسل من الحيوانات ، وقال ماركس أن عقلية الإنسان من نتاج محيطه الحيوانى ، وجاء فرويد فى القرن العشرين فقال إن الإنسان لم يتسلسل من الحيوان فقط ، بل لا تزال عقليته تحافظ إلى اليوم على بقايا أصله الحيوانى .

كل هذا بينما الفلسفة الشرقية وخصوصاً الهندية تلح فى القول بروحانية الإنسان . وجر التفكير النفسى إلى التصوف فقال المتصوفون أننا لا يمكننا أن نفهم الإنسان إذا قلنا أنه مادة فقط . وغلا بعض الصوفية فى ذلك فقالوا بوحدة الوجود ، وبأن جميع الأشياء مظهر لوجود الله ، وقالوا إن الله خلق آدم على صورته . وشبه الصوفية الإنسان بموجة من أمواج البحر الذى

لا نهاية له . وذلك البحر هو الله ، وهو شعاع من الشمس ، وتلك الشمس هي الله . والإنسان لا يرى ذاته إلا إذا جردها من شهواتها وقد ساعد الدين من يهودية ونصرانية وإسلامية على تقوية هذه النظرة ، من ذلك مثلا ما جاء في التوراة من أن الله خلق الإنسان على صورته .

وقد أثر التصوف في موقف المسيحية ، فدعت إلى كبت النزعات المادية . والإسلام نفسه عظم من شأن الإنسان ، وجعل الإنسان خليفة الله في الأرض . وفكرة خلافة الإنسان لله أثرت تأثيراً عميقاً في الفلاسفة المسلمين ، إذ قرروا أن هناك علاقة مباشرة بين الإنسان والله ، وأن الإنسان فوق جميع الخلق ، واستندوا إلى ما جاء في القرآن « وسخر لكم ما في السموات والأرض » وقد تأثر الفلاسفة المسلمون بأرسطو ولكنهم لم ينسوا ما جاء به الإسلام من نظرية خلافة الإنسان لله .. والعلماء المسلمون كالغزالي والرازي والراغب والاصفهاني قد زادوا في النظرية القائلة بأن الإنسان يشترك مع الله في صفاته .

والقول بوحدة الإنسان والله ، أو بعبارة أخرى بوحدة الوجود ، جعلت المجتمع الإنساني الإسلامي أقل مبالاة بالمصائب التي تحل بالناس ، إذ أن الإنسان فيض إلهي ، فكل ما يفعله

الإنسان هو فى النهاية فعـل الله ، وكل ما يقع يقع بإرادة الله ، والإنسان ليس إلا ريشة فى مهب الرياح ، ولذلك كثيراً ما نجد فى الحياة الاجتماعية الشرقية عدم الاهتمام بالكسب والسعى إلى الرزق ، حتى ولا بإزالة أسباب الأمراض .

أما الفلسفة فى الغرب فسيطر عليها القول بالعـلّة والمعلول . والنتيجة أنه بينما كان الشرقى يهتم بحياته الفردية ، ويتخذ الوسائل لخلاص نفسه ، اهتم الغربى برفاهية المجتمع المحيط به ، وبينما جعل الغربى العلم وسيلة إلى رفاهيته جعله الشرقى غاية .

والخلاصة أن الشرقى يرى أن الإنسان فيض إلهى يشترك مع الله فى صفاته ، وقد سخر الخلق كله له ، أما الغربى فيرى أن الإنسان حيوان يكافح العالم الخارجى . والشرقى يقول بالسكيان الروحانى والغربى يقول بالتقدم الإنسانى .

* * *

فإن نحن نقدنا المادية فى جفافها ، وقصرها حسابها على الظاهر دون الباطن وعلى الربح دون خير الإنسانية ، فإننا ننقد الروحانية فى أنها سمحت للأفكار الضالة أن تتسمى باسمها وتعيش بجانبها . وإذا نحن تمنينا شيئاً فى هذا الموضوع ، فإنا نتمنى أن تطعم روحانية الشرق بالمادية العاقلة التى تدعو إلى القوة واستخدام العلم فى مرافق

الحياة ، كما نتمنى أن تطعم مادية الغرب بشيء من الروحانية الصادقة ، لا دجل فيها ولا أوهام ولا خرافات .

إنه إذا حصل ما نتمنى أضفنا إلى روحانية الشرق يداً عاملة وقوة حاسمة ، وإلى مادية الغرب قلباً نابضاً وشعوراً فياضاً ، ولكن أنى لنا ذلك والمطاب عسير ، وتحقيقه يحتاج إلى شعوب قد عرفت المادية والروحانية ثم صممت أن تسير فى الطريق الذى تجمعت فيه مزايا الاثنتين وخلا من عيوبهما .

الفصل الثاني عشر

موقف الشرق من الغرب

جاء القرن الثامن عشر والشرق متميز عن الغرب كل التميز في شئونه الاجتماعية والاقتصادية ، فلو أراد مؤرخ أن يصف الفروق بين الشرق والغرب وقتئذ أمكنه أن يميز بينهما كل التمييز ، لا كما هو الحال اليوم .

ثم حدث أن نهض الغرب نهضته وثار ثورته الصناعية ، فأنتج نتاجاً كبيراً ، ورأى أن أسواقه وحدها لا تكفى فى توزيع سلعه فاتجه نحو الشرق وغزاه . وكان الشرق ضعيفاً فى جيشه وفى حياته الاجتماعيـة وفى حياته الاقتصادية ، يعيش عيشة بدائية فانكسر أمام الغرب ، وظلت بلاده تسقط فى يد الغربيين واحدة إثر واحدة .

وعن هذا الطريق دخلت المدنية الغربية ، وكان أمام دخولها طريقان : الأول أن تدخـل بالسيف والنار والقوة العسكرية ، وتحطيم القوى الشرقية ، واكتساح كل ما يعارضها لا كفاية بذاته

وإنما مقترنا بالاستعمار والسيطرة الاقتصادية والسياسية . والثانى : أن تدخل المدنية الغربية بالتفاهم والارشاد الهادئ ، ومعاملة الأخ الكبير للأخ الصغير والولى العادل للقاصر . ولكن مع الأسف كان دخول المدنية الغربية بالطريقة الأولى فاستقبلت لا بالترحيب والتهليل ولكن بالهلع والفزع .

وقد وضع المستعمرون الغربيون للمستعمرين الشرقيين قواعد تستنبط من أعمالهم :

١ — أن ما كان فى مصلحة المستعمر عمل .

٢ — أن ما كان فى مصلحة المستعمر وفيه ضرر على إستغلال المستعمر لم يعمل .

٣ — أن ما كان فيه منفعة للطرفين قد يعمل وقد لا يعمل .

وعلى هذا الأساس شجع المستعمرون مثلا تنمية الزراعة ووسائلها ، فنظموا الرى تنظيما حسناً ، لأن بلاد المستعمرين غير زراعية بل صناعية ، وفى تنمية الزراعة فى البلاد الشرقية زيادة الغلة ، وإذا زادت الغلة انتفع الغرب أضعاف انتفاع الشرق بها .

ومن أمثلة ذلك مد السكك الحديدية فى البلاد الشرقية ما أمكن ، لأن فى مدها فتح أسواق جديدة للمستعمر . ومن أمثلة ذلك أيضاً عدم تشجيع الصناعة لأن هذا يضر الصناعة

الأوروبية ، فخير أن تبقى البلاد الشرقية بلاد زراعية . ثم يشجعون التعليم بقدر ما يوجد التعليم موظفين صالحين للسير بالإدارة الحكومية لا أكثر ، ولذلك شجع اللورد كرومر إنشاء الكتاتيب وحارب إنشاء الجامعة فى مصر .

فإذا تم الفتح تسلطت الدولة المستعمرة الفاتحة واستخدمت كل قوتها فى كبح بوادر النهوض ، وتخويف الرعية والفتك بها ، و إذلال أهلها بشتى الوسائل .

هكذا كان الاستعمار فى أول العهد به .

ثم خفت قوته بعض الشيء ، وحل محل التبجح بالقوة نظرية مسئولية الرجل الأبيض ، أى أن الرجل الأبيض مسئول عن المدنية وعن تقدمها وواجب عليه أن يأخذ بيد المتخلف كالشرقيين .

وعلى هذا الأساس قامت فكرة الانتداب ، أى أن دولة غربية متقدمة تنتدب لإصلاح أمة متخلفة وهو إسم جديد للاستعمار .

على كل حال دخلت المدنية الغربية البلاد الشرقية فى عنف ، وأخذ الغرب يفرض مدنيته ، فمد السكك الحديدية ونظم البريد ونظمت الحكومات تنظيما غربيا وأسست الطباعة والصحف والمجلات الخ . ولكن يجب أن يلاحظ أن أكثر البلاد

الشرقية كانت ربيبة حضارات قديمة كمصر والصين والهند ، فكان لها استعداد لقبول الحضارة الغربية لا عاجزة عن ذلك بطبعها كسكان بعض البلاد المتأخرة ، فحدث أن امتزجت الحضارة الغربية ببقايا الحضارات الشرقية امتزاجا غريباً جعل الحياة الشرقية معقدة كل التعقد ، حتى لا تكاد تجد شيئاً شرقياً بحتاً ولا غربياً بحتاً .

ونلاحظ أمرين : الأول أن اقتباس الماديات من الغرب كان أقوى وأكثر من اقتباس المعنويات .

والثانى : أن كل طبقة اقتبست بقدر استعدادها ، فاقتباس أهل المدن كان أقوى من اقتباس أهل القرى واقتباس المثقفين أقوى من غير المثقفين ، واقتباس الطبقة الارستقراطية أقوى من اقتباس عامة الشعب .

وكلما جاء جيل اقتبس من المدنية الغربية أكثر من آبائه ، ولذلك اتسع مجال الخلاف بين الأبناء والآباء وسبّب ذلك اضطراباً وحيرة واصطداماً بين الجديد والقديم والمحافظين والأحرار .

* * *

تُرى ما الذى كان يصير إليه الشرق لو لم يفتحه الغرب ؟ أكان يتطور تطوراً طبيعياً ولو بطيئاً أو كان يبقى خاملا

مريضاً حتى يموت ؟ مهما كان الجواب فإن الغرب قد هز الشرق هزاً عنيفاً وأيقظه من نومه وفتح عينيه وحثه على الجد والعمل ، شاء الغربي ذلك أو لم يشأ . فلما استيقظ الشرق أخذ يتلقى عن الغرب دروساً كثيرة ، درساً بعد درس ، وإن كان بعض هذه الدروس شديداً قاسياً . ومن حسن حظ الشرق أنه كان على استعداد لتلقى هـذه الدروس وأن له من الذكاء ما جعله يفهمها ، وكان من ضمن هذه الدروس المطالبة بالحرية والاستقلال ، لأنه تعلم أن فى المدنية الغربية شيئاً كثيراً من ذلك . فلما طلب الشرق الحرية وفقاً للدرس الذى علمه إياه الغرب ، أبى عليه الغرب ذلك وتجهم له وعبس فى وجهه . وكان شأن الغرب فى ذلك شأن المحامى الكبير الذى يعلم محامياً ناشئاً ، فإذا أتى المحامى الناشئ يترافع حسب ما علمه أستاذه أبى عليه الأستاذ ذلك . وأخذ الشرق يكنّ البغض للغرب ، وقابل الغرب البغض بالبغض حتى فاض الشرق بذلك وتحوّل بغضه إلى عمل . وتنعكس هذه الصورة فى تاريخ زعماء الشرق ، فدعاة الإصلاح الأولون أمثال خير الدين التونسى فى تونس ومدحت باشا فى الإستانة والشيخ محمد عبده فى مصر ، كانوا مسالمين يدعون قومهم فى هدوء وسكينة أن يسالموا الغرب و يأخذوا منه خير ما عنده ،

كما كتب خير الدين ذلك فى كتابه « أقوم المسالك » وكما كتب مدحت باشا ذلك فى مذكراته ، وكما كتب الشيخ محمد عبده ذلك فى كثير من مقالاته ؛ فلما ظهر العداء فى الشعوب رأينا زعماء الشرق يناهضون الغرب ، ويشهرون بأعماله ، ويبدون له الخصومة ، وظهر أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومن بعدهم يدعون الشعب للكفاح ضد المستعمر ، وأصبحت كل الطبقات على اختلافها تكره المستعمرين وإن اختلفت أسباب هذا الكره : الملوك والأمراء يكرهون المستعمرين لأنهم سلبوهم سلطتهم ، والأغنياء يكرهونهم لأنهم على دين ملوكهم ، والفلاحون يكرهونهم لأنهم من غير دينهم ، وحتى الذين ذاقوا ظلم العثمانيين وعسفهم ، نسوا ذلك وأصبحوا يضمرون الضغن ، وزاد فى الضغن ما كان يظهر من الأجنبى المستعمر من غطرسة واستكبار وشموخ بالأنف ، وشعور الشرقيين بأن هؤلاء الأجانب ليسوا من هلهم ولا دينهم ولا يتكلمون لغتهم . وزاد فى ذلك ن بعض أمم الغرب كانت تبعث بممثلين لها لا يتصفون بشىء من العدل ولا من الرحمة فكرّهوا الشعوب فيهم وفى أممهم .

يضاف إلى ذلك أن الشعوب الشرقية كانت أول الأمر تعتقد

أن القدر ابتلاهم بالغرب ابتلاءاً دائماً ، وأن الأمل فى إخراجهم ضعيف لأنه ليس عندهم من القوة العسكرية ما عند الغربيين ، فماذا يعملون إزاء الدبابات والغواصات والطيارات والجيوش المسلحة بأنواع الأسلحة المختلفة ؟ ثم فهموا أن القوة العسكرية ليست كل شيء ، فهناك قوى أخرى تزلزل قدم العدو ، من مقاطعة البضائع وعدم تعاون واتحاد كلمة ونحو ذلك . وزادهم إيمانا بذلك أنهم رأوا أن هذه الطرق جربت فنجحت ، كما حصل فى الهند ، إذ كان غاندى الضعيف الذى لا يملك إلا مغزله ولا يأكل إلا لبن عنزه ، أقوى من كل الجيوش والأساطيل الإنجليزية . فكثر أملهم فى الخلاص ، ثم حدثت حوادث قوت أمل الشرق ، كاختلاف البلاد الغربية بعضها مع بعض ، إذ كان الاختلاف بين فرنسا وانجلترا مثلا سبباً فى استقلال لبنان وسوريا . وجاهر بعض المصلحين كولسن وروزفلت بتعاليم من مقتضاها حق كل أمة فى تقرير مصيرها ، فألهب ذلك حماسة الشرقيين .

وأخيراً لم يبق حجر عثرة إلا حفنة من زعماء الغرب وقادة السياسة فيه ، جمدوا على آرائهم وأبوا أن يسايروا الزمان ، ولا بد أن يأتى يوم يفهمون هذه الحقيقة ، أو لا يفهمونها فيحل محلهم

من يفهمها فيتكشف الأمر عن استرداد الشرق حقوقه و إذ ذاك يسير مع الركب.

***

بجانب فتح الغرب للشرق سياسياً فتحه له اقتصاديا ، بل قل إن الفتح الاقتصادى كان داعياً للفتح السياسى . فإن الثورة الصناعية فى أوروبا كانت ثورة كبيرة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، والتاريخ يدلنا على أن التقدم الصناعى كان بطيئاً جداً إذا لاحظت تاريخ الصناعة من أقدم العهود إلى ما قبل الثورة ، فلما جاءت الثورة طفر التقدم . فالمركبات والسفن مثلا كانت تعتمد قبل القرن التاسع عشر على الريح والعضلات كما كانت منذ أقدم العصور ، فلما جاء القرن التاسع عشر أخضعت الطبيعة لأمر الإنسان ، وعرف البخار والكهرباء واللاسلكى والبترول فطفرت الصناعة ، وأخذت المنتجات الصناعية تتدفق مما أكسب أوروبا ثروة كبيرة . وغزت هذه المواد كل بقاع العالم ، وكان الشرق يعيش على الزراعة وحدها تقريباً ، ولم يكن يحسن من الصناعة إلا بعض الكماليات التى لا تصلح إلا للطبقة الأرستقراطية ، وكانت هذه الكماليات تعتمد على الأيدى ، ولا يمكن أن تزاحم منتجات الآلات فى رخصها أضف إلى ذلك الكفاية العقلية

والخلقية واليدوية فقد كانت كلها ضعيفة بين العمال . ثم أن تقدم الصناعة يحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة والشرق إذ ذاك لم تكن عنده الجرأة فى تسخير ماله للصناعة ، فهو لا يتصور المال إلا للكنز ، و إذ ذاك كثرت الكنوز فى الأرض وفى حيطان المنزل ، وفى السواق وكثرت الحكايات فى العثور على الكنوز . فإن أنفق المال ، فإنما ينفق فى الإفراط فى الشهوات وأنواع الترف .

ونتيجة ذلك كله فقد الشرق القدرة الاقتصادية ، ولم يستطع أن يقف أمام تيار الغرب ، فتدفقت السلع الغربية وانهزمت السلع الشرقية . هذا إلى أنه لما استعمر الشرق شجع المستعمرون السياسيون المصنوعات الأوربية وخذلوا الصناعة الشرقية بكل الوسائل ، وكان جمهور الشرق فقيراً ففضل السلع الأوربية لرخصها إذ لا يهمه غير ذلك .

وانهارت الصناعات الشرقية كانهيار « براذع » الحمير أمام السيارات . و بدأ الشرق يشعر بعد ذلك بوجوب إنشاء مصانع يجارى فيها الغرب . ولكن عبئاً ثقيلا كان يثقل صدر الشرق وهو أن سياسة الغرب انحصرت فى تأخير تصنيع الشرق أطول وقت ممكن .

وإذا كانت سيطرة الغرب على الشرق لم تعد بالوضوح

الذى كان قبلا فإن سيطرته الخفية قد غدت أشد خطراً .

فإنه إذا كان الشرق العادى يستنكر وجود جيش أجنبى فى أرضه ، أو سياسيين أجانب على رأس حكومته ، فإنه لا يدرك بسهولة مدى الخطر الذى يصيبه ويصيب شعبه من سيطرة الأجنبى على موارده واقتصاده ، ومن هنا يبدو خطر هذا الخفاء .

* * *

وقد نتج عن هذين الفتحين السياسى والصناعى تغير كبير فى العادات والتقاليد ونظم الحكم والإدارة ، ولم يكن هذا التغير كله أوربياً ، فإن الشرقيين قبسوا كما قلنا قبسة من الغرب وقبسوا قبسة من حضارتهم القديمة .

والمستشرقون الذين كتبوا عن الشرق دهشوا لما عادوا بعد غيبة طويلة فرأوا تغييراً كبيراً وأوضاعا جديدة لم يكونوا قد رأوها ، حتى الآراء العقلية نفسها حصل فيها مثل هذا التغير ومثل هذه الاقتباسات ، فأفكار حرة بجانب أفكار محافظة ، والمرأة تطالب بأن تنتخب وتنتخب . . . الخ

وعلى الجملة فإنا نرى أن الفتح السياسى والاقتصادى جعل الشرق يسير سير الغرب شيئاً فشيئاً ، و يبتعد عن حضاراته القديمة

شيئاً فشيئاً . ومنطق الناس ، حتى المفكرين منهم ، هوأن يتساءلوا دائماً فى كل ما يعرض لهم : ماذا يفعل الغرب فى هذا الموضوع ، فى السياسة وفى العلم وفى القانون وفى الإقتصاد وفى غير ذلك .

وهـذا منهج غير سليم ، والمنهج الصحيح أن يضع المصلح إحدى عينيه على الغرب لينظر ماذافعل ، وعينه الأخرى على الشرق لينظر ماذا يصلح له ، كما فعل مدحت باشا وخير الدين التونسى وأمثالهما . ومن حسن الحظ أن أكثر بلاد الشرق من هند وصين ويابان وبلاد عربية وإسلامية كلها مستعدة لقبول المدنية الحديثة . فالهند والصين مثلا لها حضارات قديمة وقد تقبلا المدنية الغربية وأفسحا لها صدرهما إلى أبعد حد ، واليابان أصبحت وكأنها غربية ، فى الصناعات وفى العلم وفى السياسة . والعرب برهنوا فى كثير من مواقفهم على أنهم على استعداد لقبول المدنية الجديدة والاستفادة منها بقدر الإمكان ، وقديماً استطاعوا أن يقتبسوا حضارة الفرس والروم واليونان ويأخذوا خير ما فيها ، حتى أصبحت بغداد مسرحا للحضارة المقتبسة من كل الحضارات .

على أن بعض الأوربيين يرى أن الشرق لا يستطيع أن يتقبل مدنية الغرب ، كالذى قاله اللورد كرومر عن مصر فى كثير من

تقاريره ، وكالذى قاله شيخ من نزلاء الإنجليز فى القدس : إن المسلمين ليس لهم حضارة باقية وكل ما لهم الآن بقايا ممزقة وآثار بالية . ويقول أحد الفرنسيين : ليس فى الحضارة العربية اليوم حياة ، فإنها قد تحجرت فى قرطبة ، وعقمت ولم تعـد تنتج شيئاً منذ خمسة قرون ، وليس لمفكرى العرب رغبة فى إصلاح معين وهم الآن متهالـكون على الآراء الغربية تهالـكهم على البضائع الأوربية . ويقول : إن للعرب مزايا عالية ، ولـكنها مظاهر خداعة ، فأنت إذا تعـاملت مع عربى شريف تدم لك القهوة ووضع جميع ممتلكاته تحت تصرفاتك ، ولـكنك تعجب لما فيه من عدم الاعتماد على النفس ، وصفة التواكل التى ملـكت عليه نفسه ، وعجزه عن العزم وعن البدء بالعمل ، وعدم تحديد غاية ينشدها ، وعدم قدرته على الصبر والمثابرة .

فكل هذه الأقوال وأمثالها لا تمثل الواقع فى نظرى ، وإنما بعث عليها الرغبـة فى بقاء الإستعمار والتشهير بالمستعمرين حتى يكون الاستعمار مقبولا . والدليل على مرونة الشرقيين واستعدادهم لقبول المدنية الغربية تاريخهم فى الخمسين سـنة الأخيرة ، كيف نهضوا وتغيروا وساروا فى الطريق الصحيح ، وهو من غير شك

بدء يبشر بالخير . ولو كان الشرقيون كما يرى هؤلاء المستعمرون لرأينا الشرق جامداً فى مكانه ، ولرأينا حاله اليوم كحاله منذ خمسين سنة .

غاية الأمر أن سرعة تقدم الشرق فى مضمار الحضارة متوقفة على أمرين : أمر داخلى ، هو إزالة ما فى نفوسهم من مركب النقص واعتقادهم أنهم ناس كالغربيين ، لا يقلون عنهم ميزة ، ولا يقلون عنهم ذكاء ، وأنهم يستطيعون أن يبلغوا أكثر مما بلغوا . وأمر خارجى ، هو تعديل الغرب نظرته إليهم ومساعدته لهم من غير أن يستغلهم .

إن الشرق وخصوصاً العالم الإسلامى عاش قروناً طويلة ينتج الأدب أكثر مما ينتج العلم ، فنرى شعراً كثيراً ، وأدباً كثيراً وعلماً قليلا . والنهضة الحديثة مبنية على العلم أكثر منها على الأدب ، والعلم يطبع أهله بطابع الدقة والمنطق . والشرق فيه كنوز كثيرة مدفونة قابلة للاستغلال من بترول وذهب وفسفور وغير ذلك . وإذ كان الغربيون أعلم منا ، أمكنهم أن يستغلوها من قديم ، ويستفيدوا منها أكبر فائدة ، بينما نحن أحق بها ، إذ هى فى ملكنا وتحت أعيننا ، ولا ينقصنا إلا تقدمنا فى العلم .

إن مشكلة الشرق خلقية وعقلية قبل أن تكون اجتماعية اقتصادية . فأخلاقهم ينقصها الحزم والصراحة ، كما ينقصهم وجود زعماء نابغين حقاً . وتسألني : على من تقع تبعة تأخر الشرق ؟ أعلى الشرق نفسه أم على الغرب . والحق أنها تقع عليهما جميعاً ، أما على الشرق فلجموده وخموله وتواكله وإمعانه فى التقليـد ، وعدم إقباله على الإبتكار ، وسوء تربية بنيه . وأما على الغرب فلأنه استبد بالشرق واستغله ، وسلبه حريته وراعى فيه مصلحته هو لا مصلحة الشرق نفسه . ومهما ذكرنا للشرق من عيوب وأبنّا من عوائق ، فإنه رغم عيوبه ورغم العوائق التى تعترضه قد تطور إلى خير مما كان وهو بسبيله للتطور إلى ما هو خير من حاله الآن .

***

ولكن مما يؤسف له أن هذا التطور صحبه كثير من الحيرة والاضطراب وترجع هذه الحيرة إلى أمور أهمها :

١ — اضطرابه بين القديم والجديد ، أيهما خير ؟ ويكثر هذا الاضطراب عند الناس المخضرمين الذين عاشوا فى القديم والجديد ، فلا هم عاشوا كأجدادهم فى القديم فقط ، ولا هم عاشوا كآبائهم فى الجديد فقط .

٢ — أنهم رأوا الأوربيين أنفسهم فى حيرة من أمرهم .

* * *

وهنا يعرض سؤال لكل باحث وهو : ما مصير الشرق ؟ وأجيب على ذلك بأن هناك عوامل كثيرة ستؤدى إلى تقدمه ، منها : زيادة وعيه القومى حتى أصبح يفهم أساليب الاستعمار ويقاومها ، وزيادة تثقفه ، وانقسام الأوربيين على أنفسهم بين معسكرين كل معسكر يحاول أن يكون الشرق بجانبه . كل هذه العوامل تجعلنا نؤمل فى الشرق كثيراً ، خصوصاً إذا زالت عقبة عقلية السياسيين الأوربيين فى نظرتهم إلى الشرق نظرة استعمار ، والأمل كبير أن يحل محلهم ساسة جدد بعقلية جديدة ، يسايرون الزمان ويعلمون أنه لابد مع تغير الشرق من تغير الغرب ، فإذا تم ذلك نظروا إلى الشرق نظرة جديدة ووضعوا أيديهم فى أيدى الشرقيين ، وتعاونوا جميعاً على العمل لخير الإنسانية . على أن ذلك لن يكون للشرق إلا بعد دروس قاسية ، وجهاد طويل ، وتضحيات كثيرة ، وهذه تتطلب التحمل والصبر ، وتجارب واسعة ، وزعماء قادرين .

خاتمـــة

هنالك قصة هندية تروى أن ثلاثة رجال كانوا يفخرون بعلمهم وثقافاتهم ، قرروا أن يرحلوا إلى بلاد بعيدة ليستفيدوا من شهاداتهم وعلمهم . وفيما هم سائرون وجدوا عظاما متناثرة لأسد ميت . قال أحدهم : أنا أعرف كيف أضم هذه العظام بعضها إلى بعض . وقال الثانى : وأنا أستطيع أن أكسوها بالجلد واللحم . وقال الثالث : وأنا سأجعله يتنفس . وقام الأول فنفذ ما وعد به ، ثم الثانى ، وما أن نجح الثالث فى أن يجعل الأسد يتنفس حتى قام الأسد وأكلهم جميعاً .

ترمز هذه القصة إلى الحضارة الأوروبية وزهو الأوروبيين بعلمهم ، وكيف أنهم قاربوا نهايتهم بسبب غرورهم وسوء تصرفهم ، حتى انقلب علمهم وانقلبت صناعاتهم وبالاً عليهم .

وتعجبنى حكاية صينية قديمة عن بستانى كان يسقى بستانه بإناء يملؤه مراراً ويسقى به زرعه ، فرآه رجل آخر وقال له : لماذا تتعب نفسك هذا التعب ؟ ما عليك إلا أن تحفر قناة أو



المصانع . . . عماد مدنية العرب

قناتين ، أو تقيم شادوفاً تسقى به البستان . فأبى البستانى وقال : إنى أحب أن أرى يداى تسقى كل زهرة من أزهار بستانى ، وإذا أنا استخدمت الآلة للسقى جف قلبى وصار آلة مثلها .

قصتان تحذران من غرور العلم ومن الآلة ، وقد رأينا بالفعل ما وصلت إليه أوروبا من غرور وتحجر قلب ، حتى قامت فأحرقت نفسها ودمرت ما بنته بحربين لم يشهد العالم مثيلهما ، وعاشت بعد الحربين فى خوف دائم ونشرت الرعب فى العالم كله .

إننى أرى أن العلم والصناعة ليسا سبب بلاء الحضارة الأوروبية ، وأن الذى أهلك أوروبا إنما هو جشعها وطمعها وتجردها من العواطف الإنسانية ، حتى أنهم لم يستخدموا العلم والصناعة إلا فى استعمار الدول الأخرى وكبت حرياتها وسرقة ثرواتها .

ولم يكن هذا أمراً طبيعياً حتى يدوم ، ففى الشرق حدث أن ثارت الشعوب ضد الاستعمار ، ومدتهم هذه الثورة بأسباب الكفاح : نشاطا بعد خمول ، وقوة بعد ضعف ، وأملا بعد يأس .

وحدث عكس هذا فى الغرب ، فقد تنافست الدول فى أيها يفوز بالمستعمرات ، وأدى بها التنافس والطمع إلى حروب أتت

على قوتها ونشاطها . وساعدت هذه الحروب الشرق على أن يستمر فى كفاحه ضد هذه الدول المتحاربة . وباستمرار هذا الكفاح نال الشرق قوة وحيوية لم يعهدا فيه منذ أجيال طويلة .

وهكذا رأينا حضارة جديدة تقوم فى الشرق، حضارة مبنية على العلم والصناعة كحضارة الغرب ، وكل أملنا أن تظل حية قوية دون أن تصيبها تلك الأمراض التى أصابتها .

